"الرؤية الكونية الإسلامية عند "علي شريعتي"

يوسف السيد بدر(*)

ملخص

الرؤية الكونية واحدة من القضايا التي شغلت المدارس الفكرية الحديثة؛ لأنها تحدد نظرتها إلى الله والإنسان والعالم. ويعتقد المفكر وعالم الاجتماع الديني ""علي شريعتي" بوجود علاقة متبادلة بين النسق الاجتماعي والنسق الديني، فوقوع تغيير في واحدة منهما ينعكس على الآخر؛ ولذلك يرى أن التغييرات الاجتماعية التي طرأت على المجتمع الإيراني أدت إلى حالة من عدم الانسجام داخل النسق الديني الإسلامي الشيعي؛ وذلك بهدف تبرير الواقع العيني الاجتماعي والسياسي، وبذلك يكون من نتائج التغيير في النظام الاجتماعي التغيير أيضاً في الرؤية الكونية للمجتمع، ومن ثم تحدد مدى تخلفه أو تقدمه عن المجتمعات الأخرى. ويقوم هذا البحث بالكشف عن الرؤية التصحيحة التي قدمها "شريعتي" للرؤية الكونية الإسلامية بهدف تصحيح النسق الاجتماعي داخل مجتمعه الإيراني الإسلامي الشيعي. وقد اعتمدت دراسة البحث على مناهج عدة، منها المنهج الوصفي في متابعة الظواهر وجمع الحقائق والمعلومات والملاحظات عنها، والمنهج الاجتماعي في تفسير وتحليل هذه الظواهر وفق دراسة الفكر والاجتماع الديني.

*(مسجل لدرجة الماجستير) كلية الآدب– قسم اللغات الشرقية وآدابها– فرع اللغة الفارسية وآدابها – جامعة عين شمس

Islamic Worldview, According To "Ali Shariati"

Joseph Bader

Abstract

The World vision is one of the most important issues, which get interested in by the modern thoughts schools. Because it defines their view of the God, human and world. Ali shariati, Believed that there is correlation between the social method and religious method, and changes for one of this two methods will reflected on the other. Therefore believes that the social changes that have occurred in Iranian society led to a state of inconsistent within the Muslim Shiite religious method; in order to justify the social and political reality. Thus, the results of the change in the social system is the change also in the World vision of the society, It then determines the extent of its failure or progress from other communities. This research is trying to show the corrective vision which is provided by Shariati to the Islamic World vision in order to correct the social method inside his Iranian Islamic Shiite community. This study base on several methodology including "Descriptive approach" which attend in follow the phenomena and collect the information and notices about it, the "Social approach" also to interpretation and analyzation this phenomena according thought studies and Sociology of Religion**.**

مقدمة

يُلقب المفكر والأديب والكاتب والشاعر وعالم الاجتماع الديني الإيراني علي شريعتي (23 نوفمبر 1933م _19 يناير 1977م)، بمنظّر ومعلم جيل الثورة الإيرانية (1979م)[1]. وقد تخرج في كلية الآداب جامعة مشهد، ثم سافر إلى فرنسا ليستكمل دراسته العليا، بعد أن حصل على منحة للدراسة في الخارج عام 1959م[2].

وفي هذه المرحلة، بدأ يتعرف على الحضارة الغربية بشكل مباشر، بعيداً عن أدبيات النصوص، في واحدة من أهم قلاع هذه الحضارة، وهي مدينة "باريس" الفرنسية. لاسيما أن فرنسا من بعد ثورتها الشهيرة التي اندلعت عام 1789م، مثلت رمزاً مهماً في العالم للثورة على الديكتاتورية والاقطاع والطبقية الاجتماعية والدينية. وتعد الفترة التاريخية التي أعقبت هذه الثورة، من أهم الفترات التي وُلدت فيها التيارات والمدارس الفكرية والسياسية، فيما عُرف باسم عصر "التنوير"[3].

والحضارة الغربية الحديثة بدأت مع ثورة الإصلاح الديني التي أطلقها الإصلاحي الألماني "مارتن لوثر" على سلطة الكنيسة (البابوية) التي استبدت بالإنسان والمجتمع الغربي، وهو ما قاد الإنسان الغربي بعد ذلك، إلى التخلص من السلطات الفوقية التي استبدت به، واعادة الاعتبار لمركزية الإنسان والعقل في فهم الكون وتفسير الدين والتراث وتنظيم وبناء المجتمع الغربي الجديد الذي يكون فيه الإنسان سيده ومركزه. وبدأت المدارس والتيارات الفكرية تضع تفسيراتها على مبدأ أصالة الإنسان، وهو ما عُرف بتيار الأنسنة، الذي عمل على التخلص من سلطة التراث والتاريخ وبنية المجتمع على تشكيل هوية وعقل وفكر الإنسان[4].

وعندما عاد "شريعتي" إلى مجتمعه الإيراني الإسلامي الشيعي، عمل على الاستفادة من التجربة الغربية ونهضتها، واستحضارها إلى مجتمعه، وطرح مشروعه الإصلاحي الديني وسماه "التشيع العلوي"، وكان الهدف منه الإصلاح الاجتماعي ومن ثم النهضة الحضارية. وقد أسس ذلك على إعادة فهم الإسلام كأيديولوجيا وإعادة تصحيح الرسالة والرؤية الكونية التي يحملها الإسلام بما يقود مجتمعه الإيراني إلى الثورة على التناقضات والبنية الطبقية والفوقية التي شلت حركته في مسار التغيير والتطور[5]. وقد تحرك مشروعه الإصلاحي في مسارين: إلى نقد الذات التراثية التقليدية التي تهيمن على مجتمعه، وإلى نقد الذات الغربية التي عايشها والتي تتسرب مع المثقفين المتنورين إلى داخل مجتمعه[6].

وقد أسس مشروعه الإصلاحي على نفس المبدأ الذي قامت عليه الحضارة الغربية (الأنسنة)، وهو الانتقال من السلطة إلى العقل، ومن التراث والتاريخ إلى أصالة الإنسان[7]. ولكن شريعتي لم يقبل بالتأسيس الغربي على سلطة العقل المادي الذي يتخلص من العالم الماورائي والدين، وأسس مشروعه الإصلاحي على الدين في صورته الأصيلة بعيداً عن سلطة التراث والتاريخ والطبقة، وأعاد فهم (التوحيد): المبدأ الأول للإسلام بما يمنح هذا الدين استحقاق كونية الرسالة، وبما

يمنح الإنسان المركزية في فهم وتشكيل مجتمعه والتحكم في مصيره. وقام بتفسير اعتقاد التوحيد تفسيراً اجتماعياً بما يضع الإنسان في خط موازٍ مع الإله، وبما يضع الدين والعلم في مسارٍ واحد، بدلاً من المقابلة والضدية التي تأسس عليها المجتمع القديم[8].

الرؤية الكونية[9] (Worldview)

1) المفهوم:

الصورة الكلية التي يكونها الإنسان لنفسه عن نفسه وعن العالم من حوله، في حدود الموقع الذي يحاول منه الرؤية، وزاوية النظر التي يتخذها، والبيئة الطبيعية والاجتماعية والنفسية، والنظام الفكري بمكوناته اللغوية وأطره المرجعية... هذه الصورة الكلية هي التي تعرّف الإنسان، عندما تنظر إليه من الخارج، وتعرّفه برؤيته هو لنفسه وللأشياء من حوله، وهي ما يُعرف بالرؤية الكلية، أو الرؤية الكونية، أو الفكرة الكلية، أو التصور الكلي، أو الفلسفة العامة، أو التفسير الشامل، أو النموذج التفسيري أو الأيديولوجيا... أو ما أصبح يعرف على نطاق واسع: رؤية العالم[10].

وبتعبير أبسط: فإن الرؤية الكونية هي الطريقة التي ينظر بها شخص أو جماعة أو أمة ما إلي الكون ككل والتي يرون من خلالها هذا الكون ويفهمونه ويفسرونه من خلالها. ولا توجد مدرسة فكرية دينية أو فلسفية أو اجتماعية إلا وتحمل رؤية كونية تجاه العالم، وتمثل هذه الرؤية بنيتها التحتية التي تمثل الأهداف التي تحملها والتي تسعى إلى تحقيقها[11]. ونموذج ذلك المدرسة الاشتراكية أو المدرسة المادية.

والرؤية الكونية تعتمد على: 1- تأسيس تصور 2- إعطاء حكم 3- تبني موقف من العوالم الثلاثة (الإله، الإنسان، الكون)، أي أن الرؤية الكونية تهتم بعوالم الطبيعة **Physics**، وماوراء الطبيعة **Metaphysics**، وبالذات **Self** وموقعها وعلاقتها بالآخر **Other** سواء كان الإله أو الطبيعة أو ذات من أعضاء الجماعة التي ينتمي إليها الشخص، أو من خارجها. وهذا يعني أن الرؤية الكونية لا تتأسس على "المعلومات المتغيرة"، وإنما على "المعرفة الثابتة"[12].

2) الرؤية الكونية والإسلام:

الإسلام مثل أي مدرسة فكرية يمتلك رؤية ورسالة كونية، وهو ما تدل عليه آيات قرآنية مثل: (الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ **النَّاسَ** مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)[13]، والناس هنا لا تعني عرب الحجاز الذين خرجت من بينهم رسالة الإسلام، وإنما تعني البشرية جمعاء، أي الإنسانية.

فالإسلام كمدرسة لديه مجموعة من الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي وظيفتها أن تجيب عن الأسئلة الوجودية الكبرى، التي شغلت عقل الإنسان منذ وجوده، والتي تساعده على فهم ماهيته وغاية وجوده هو والكون، وتمنحه التصور

الكلي الذي يفسر له كل شئ، مثل علاقته بالعالم المادي والغيبي، وبالآخر والطبيعة والإله[14].

وطبيعة الرؤية الكونية في الإسلام يمكن تحديدها من خلال أنواع الرؤى الكونية التي تنقسم إلى ثلاثة أنواع[15]:-

1. **الرؤية الكونية العلمية:** قائمة على مبدأ (الفرضية) و(التجربة)، أي التجربة العملية الحسية الملموسة والواقعية، ولذلك لا تتطرق إلا إلى الجوانب المادية من العالم ولا تتناول الجانب الخفي منه، مثل العالم الغيبي واللامرئي، وتعتبر رؤية متزلزلة وغير ثابتة بسبب عدم قطعية النتائج ونسبيتها، مثل نظرية أصل الكون ومنشأه، ونظرية النشأة والتطور لتفسير أصل خلق الإنسان.
2. **الرؤية الكونية الفلسفية:** قائمة على المبادئ البديهية العقلية المنطقية غير القابلة للانكار، وتعتمد على منهج الاثبات والاستدلال المسبق، فهي رؤية نظرية، وتجنح إلى المثالية، وتخالف الرؤية العلمية، بأنها تتسم بالثبات، وبالنظرة الشمولية فهي تجيب على كافة الأسئلة حول العالم المادي والماورائي.
3. **الرؤية الكونية الدينية:** بالنسبة لدائرة الأديان السماوية، لديها رؤية شمولية حول الكون والوجود؛ فهي تتناول عالم الغيب والشهود. وتخالف الرؤية العلمية والفلسفية بأن لديها تصور واضح عن عالم الغيب، وبأنها تتحصل تصورها الكلي عن طريق (الوحي)، وهو ما يعني أنها لديها رؤية ثابتة، ولارتباطها بالمقدس، فهي تقدس أصولها ولا تقبل بتبدلها، وتمنحها صفة الاستمرارية والخلود، وتتطلب مبدأ الإيمان بها[16].

– ومسألة الإيمان بالعالم الغيبي أو إنكاره تُقسم الرؤية الكونية إلى نوعين، الأولى: **(إلهية)** وهي ما تؤمن بالعالم الغيبي، والأخرى: **(مادية)** وهي ما تنكره لأنه لا يدخل في دائرة المادة الحسية القابلة للمشاهدة[17].

وقد تحددت معايير حتى يمكن الحكم على أفضلية رؤية كونية عن أخرى، منها: 1- أن تكون قابلة للاثبات والاستدلال ومستندة على المنطق والعقل. 2- أن تعطي معنى للحياة والوجود، ولا تجنح الى العدمية والسلبية. 3- أن تكون لديها رؤية مستقبلية إيجابية متفائلة 4- أن تقدس الأهداف الإنسانية والاجتماعية 5- أن تتحمل المسؤولية تجاه تحقيق رؤية كونية منطقية قابلة للتحقيق، فتقوم بتذليل الصعاب أمام تحقيق ذلك وتتجنب المبهمات والغموض، وهو ما يجعل أفرادها يقدسونها ويضحون من أجلها، وغير ذلك فلا يمكن تحقيق هذه الرؤية[18].

ونستنتج من ذلك: أن الرؤية الكونية في الإسلام، هي رؤية دينية إلهية، وهو ما يجعلها تضع العالم المادي والماورائي في موضع اهتمامها، فهي تتناول موضوعات عملية وعقائدية وأخلاقية وغيبية.

ولأن الإسلام هو الرسالة الإلهية الخاتمة والكاملة، ويتحمل مسؤولية إرشاد الإنسان وهدايته، وإمداده بكليات الرؤية الكونية الحضارية لمعنى وغايات وجوده وإمكاناته الفطرية والاستخلافية في الأرض[19]؛ فلابد أن تكون له رؤية كونية تميزه

عن باقي الرؤى، وإلا ما معنى صفة الدين الخاتم الكامل، وحصرية الإرشاد والهداية. فالإسلام قائم على مبدأ **التوحيد** في أنقى صورة {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[20]، وعلى التسليم لله الواحد الذي لم يخلق الكون عبثاً ولا باطلاً {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}[21]، بل هناك أهداف حكيمة تكمن وراء خلق الإنسان والكون. والتدبر في الكون يدل على أن الله المبدع خلق النظام الموجود في أحكم وأكمل صورة، وقائم على قوانين وسنن محكمة. وحسن التدبير هذا، يدل على أن الكون قائم على أساس المبادئ الثلاثة: **(الحق)** و**(العدل)** و**(الجمال)**، وأن الموجودات تتحرك تجاه **(الإله)** الكامل والمطلق في كل صفاته من أجل الكمال، أي أن الله يمثل قطب ومحور هذا الكون {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ}، {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ}[22].

والخلاصة: أن الرؤية الكونية في الإسلام هي **رؤية كونية فلسفية عقلية وعملية** في الوقت ذاته حتى تحقق الأفضلية؛ فهي تسلم للقوانين والسنن التي وضعها الله الواحد حتى تكون واقعية، وتتصف بالمثالية المنطقية حتى يمكنها تحقيق عالم أفضل منشود على الأرض قبل السماء[23]. ويتضح مدى أهمية الوعي بالرؤية الكونية للإسلام حتى يمكن تحقيق مبدأ (الخاتمية الهادية)، فهي تمثل تصور عملي لحقيقة رسالة الإسلام، وأن أي إخلال في هذا التصور، ما من شأنه أن يفسد مثالية ومنطقية الرسالة الكونية في الإسلام، كأن نجد بعض المسلمين يقوم بتفسير الرسالة الكونية لأهداف مصلحية خاصة قبلية أو عرقية أو طائفية أو طبقية، أو بتفسيرات غنوصية باطنية وهمية؛ فهذا يضر بحقيقة الرسالة الإسلامية التوحيدية الكونية، وهو ما سعى "شريعتي" إلى كشفه وتوضيحه في نظريته "التشيع العلوي".

3) الرؤية الكونية عند "شريعتي":

تمثل الرؤية الكونية الإسلامية واحدة من أهم قضايا مشروع "شريعتي" الإصلاحي، لا سيما أن عدم تحققها على أرض الواقع ينسف الصورة المثالية التي تدعيها التيارات الإسلامية التقليدية في مجتمعه والعالم الإسلامي، وهو ما يعزز من قوة مشروع "شريعتي" الإصلاحي. فقد وجد أن الرؤية الكونية الحضارية للإسلام في الواقع الراهن ما هي إلا رؤية كونية نظرية لا تتخطى الأحلام والأوهام والادعاءات والخطاب الفوقاني الذي لا يستفي شروط تحقيقه، أي أن الإسلام تحول إلى شريعة من ورق لا تتخطى النصوص وما تحمله من جدل وتفلسف الفقهاء. وهو ما جعل "شريعتي" يدخل في صدام مع هذا الواقع الإسلامي الراهن في مجتمعه الإيراني، الذي سماه **بالتشيع الصفوي**؛ لأنه يحط من رسالة الإسلام ويقوم بتزوير حقيقة التشيع، ويدفع الأجيال المسلمة إلى الارتماء في أحضان التيارات الغربية المادية والإلحادية المضادة للإسلام[24].

وأمام الآيات القرآنية التي تؤكد على كونية الرسالة التي يحملها الإسلام، ومنها: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ}[25]، وأخرى تتحدث عن مُبلغ الرسالة النبي محمد ﷺ {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ}[26]، يقف "شريعتي"

في حيرة، فيجد الرسالة الكونية التي هي من أجل الإنسان على الأرض أولاً، تتحول على يد التشيع الصفوي إلى رؤية باطنية أخروية تخديرية، ويتحول **الإسلام الكوني** إلى **إسلام طائفي** أو عرقي أو طبقي، وهو ما سماه بدين الشرك والمصلحة، الذي صنعه التشيع الصفوي بالنسبة لمجتمعه الإيراني، أي تحول الإسلام من رسالة من أجل الإنسان إلى رسالة تعمل ضد الإنسان والإنسانية.

استعرض "شريعتي" العواقب الوخيمة جراء تضييع الرسالة الكونية للإسلام على البشرية والمجتمعات الإسلامية، واعتبر أن رجل الدين والمتدين التقليدي اللذين روجا للدين التقليدي والإرثي والتاريخي والأخروي يتحملان مسؤولية تخريب هذه الرسالة وتعطيلها، التي هي أمانة يحملانها من أجل البشرية.

وفي خطاب انتقادي إلى جيل الآباء الذي يمثل مدرسة (الإسلام التقليدي والمدرسة الصفوية)، بين "شريعتي" كارثة ضياع الرؤية والرسالة الكونية للإسلام، فيقول: "أبي! أمي!، إن دينك ومذهبك وكل الأعمال التي تؤديها باسم الدين والمذهب وكل ما تملكه من عقائد باسم الدين والمذهب، جمعيها بلا فائدة وعبث. إنهم **(معارضو الدين)** يتهمونك قائلين: "إنك تؤمن بالدين، ودينك عبارة عن قوة تجعلك غافلاً عن الدنيا وعما قبل الموت، وتجعل كل همك وخوفك وسعيك ووسواوسك ومسؤولياتك وجهدك وقفاً على الموت وعلى ما بعد الموت"[27].

ثم بعد أن يستعرض واقع الدين التقليدي الأخروي الذي يجعل من الإسلام لا فائدة منه على الأرض، يسأل "شريعتي" أين الحياة من هذا الدين، وأين إجابته وإرشاده للخلاص من عذاباتنا في الدنيا قبل الأخرة، فيقول: "وأنا كشاب ومفكر ومتعلم عصري منشغلٌ بما قبل الموت، ولكن دينك لم يحدثني عن شئ قط يتعلق بما قبل الموت .. ولم يحدثك أنت أيضاً .. كما أنك لا تعلم شيئاً .. إنك تقول: إن كل معتقداتي وأعمالي الدينية تنفع فحسب حين أجيب منكر ونكير عندما أضع رأسي في القبر على لبنة اللحد وترابه .. سوف تتضح فوائدها، ويتبين آثرها آنذاك .. وأحصل في النهاية على ما قدمت يداي في الدنيا.

أقول: هذا حقيقي لكن بالنسبة لما قبل الموت حيث تتعذب أرواحنا في المذلة والفقر والحاجة .. أي شئ عند دينك بالنسبة لهذا؟! لاشئ! .. إنك تحترق في النار وأهلك يحترقون في النار .. وبني جلدتك وسكان العالم والبشر كلهم يحترقون في نار الحياة .. وأنت لاتحس حتى بالحرارة .. وكل لياليك وأيامك بكاء واضطراب من مجرد تصور لهب نار القيامة والعذاب بعد الموت!.

لكني اكتوي بهذه النار التي نشبت في البشرية الآن. وأنا وأنت والآخرون وجميع الناس نحترق فيها .. وأنا كل انشغالي وبحثي منصب على أن أجد شيئاً يطفئ هذا اللهب وماءً يخمده!"[28].

ثم يصدم "شريعتي" أصحاب الدين التقليدي بحقيقة وواقع دينهم الذي يسعى وراء خلاص فردي أناني، يقوم على الاحتيال وتعطيل المسؤولية تجاه البشرية وتغيير المصير، والتسليم للمذلة في الحياة باسم الجبر، والرضوح للظلم والفساد

والضعف والفقر والجهل تحت وطأة قانون (حتمية القدر)، فيقول: "أبي: نهاية الأمر، أي نوع دينك هذا؟! إذا كان من تربى عليه، لا يتحدث عن البشرية، ولا عن المجتمع وحياة البشر، ليس هذا فحسب؛ بل أنه لا يتحدث عنه ابنه إلا إذا أضافه إلى نفسه كل همه "أنا" .. هنا في الدنيا "أنا" وهناك في الأخرة "أنا"! وعلى هذا الدين أن ينجيك أنت فحسب، وأنا أبحث عن دين وإيمان ينجي البشرية وأكون أنا نفسي فداءً له .. دين يسعى لخلاص المجتمع ويجعل "أنا" الفرد قرباناً لـ "نحن" الجماعة"[29].

"إن رؤيتك الكونية هي الرؤية الكونية البطنية (المصلحة الخاصة والاستهلاكية)، أما البشرية والأخلاق والإرادة والمسؤولية والخير والشر والعمل والفكر والمصير والسيرة والجهاد والجناية والخدمة والخيانة و... كلها عبث .. كلها متعلقة ببطوننا، وإني لأتعجب: لماذا تمدح شجاعة علي؟! ولماذا تبكي على استشهاد الحسين؟ ولماذا تغضب من قسوة شمر[30]؟! هل قاتل الحسين هو شمر.. أو هو والعياذ بالله (الله) ..أترى من أين ينبع دينك ويطل برأسه .. إنه يضر بالخلق وبالله .. إنه ينفع "شمر" فحسب!"[31].

وهنا يقدم "شريعتي" نقداً لاذعاً لهذا النوع من الإسلام والتشيع الذي أضر بالرسالة الكونية وحامليها، الذي لا يحمل أي رسالة إيجابية لصالح البشرية، والذي جعل هناك حالة من التناقض؛ فمن أين الدعوة إلى اتباع "علي" و"الحسين" اللذين تحركا للتغيير ورفضا إسلام المصلحة، وفي ذات الوقت الصورة الاستسلامية والانهزامية والجبرية والأنانية التي يقدمها الشيعي التقليدي، تخدم أعداء "علي" و"الحسين" وتضر برسالة الإسلام والتشيع.

ثم يبين "شريعتي" أن هذه الصورة من الدين التي قضت على الرؤية والرسالة الكونية الحضارية والإنسانية للإسلام، هي ما تقود الأجيال القادمة إلى الإلحاد والتخلي عن عظمة الإسلام، وتجعلها تبحث عن خلاصها في التيارات والمدارس الفكرية المادية التي تعارض الدين والتدين، من أجل التخلص من الدين الذي تسبب في تخديرهم وافساد مصيرهم وتسبب في أزمات الانسانية. ويتعاظم هذا الهروب من الدين حينما لا يدرك رجل الدين التقليدي أسباب إلحاد الأجيال الجديدة التي عانت من آثار الدين الإرثي التخديري، واقتصار تفسيره لسبب الإلحاد، أنه نتاج الفراغ الروحي للإنسان[32]. بينما كما وضح "شريعتي" هذه (نتيجة) وليست (مقدمة) ودافع للإلحاد الذي يقع نتيجة الواقع الديني الفاسد والمضر بالإنسان، والذي يدفعه إلى البحث عن أي مدرسة وتيار أفضل ينقذ مصيره البشري ويحرره وإن كان تياراً إلحاديا، فيقول: "إذن أبي! أمي!، هذه هي مسيرة الدين الذي تدلني عليه، وأنا لا أريد أن أكون في هذه الدنيا سجيناً أسيراً تعيساً، أريد أن أكون حراً عزيزاً مرفوع الرأس .. إن هذا الكفر الذي تحدثونني عنه يعطيني الحرية في هذه الدنيا والعزة والسعادة والجنة، وأنا أفضله عن دينكم الذي يستوجب السجن والأسر والشقاء والفقر، ويوصي بها"[33].

"وهكذا كان يا أبي: تركت إيمانك "البطني" وصرت وجوديًا[34].. واعتقدت أنـي أستطيع أن أصنع مصيري ومصير مجتمعي! مقدرتي في يـدي وطـوع إرادتـي وباختياري .. وآمنت "بسارتر" ذلك الذي يقول: وحتى ذلك الذي تلده أمه مشلولاً .. إن لم يصبح بطلاً رياضياً فهو المسؤول!، انظر إلى أي مدى تدل هذه العبارة على إرادة الإنسان وحريته؟ هذا هو نمط تفكير "سارتر" المادي اللاديني، وتلك رؤيتـك أيها الروحاني والديني!"[35].

4) الرؤية الكونية والإصلاح:

الرؤية الكونية تمثل الرؤية الشمولية والرسالة التي يحملها الإسلام للإنسان والعالم، وهي الرسالة التي تم اخضاعها لأهداف مصلحية عرقيـة وطائفيـة كمـا شهدنا مع تجربة التشيع الصفوي الذي خدم الـذات القوميـة الإيرانيـة، والتسـنن الأموي الذي خدم الذات القومية العربية، وغيرهما من ذوات استغلت الإسلام ضـد الإنسانية، ما أدى في النهاية إلى القضاء على حقيقة الرسالة المحمدية للبشـرية[36]، التي هي للقضاء على التضاد البشري كما طرح "شريعتي" في مشروعه الإصلاحي القائم على مبدأ التوحيد: (إله العالمين/ إله الناس).

اتضح من خلال آثار "شريعتي" أنه كان يفتش عن حقيقة (الإسلام) الـذي يمثل له الدين الحركي و(الأيديولوجيا- أصالة المبادئ) التي ستقف وراء الحركـة الإصلاحية الاجتماعية والحضارية في مشروعه الإصلاحي، فطبيعة الرؤية الكونية عند "شريعتي"، تأتي من طبيعة الإسلام، أي رؤية كونية دينية توحيدية تعمل فـي خدمة (الناس) أي البشرية، الذين اقترن ذكرهم بإله التوحيد (إله الناس).

وبذلك لا يمكن تحقيق الرؤية الكونية الإسلامية التي تحمـل رسـالة الإسـلام للبشرية جمعاء، من داخل مجتمع إسلامي مصلحي أناني، قائم توحيده علـى إلـه العرق أو إله الطائفة أو إله الجماعة. ولا يمكن لمجتمع إسلامي أن يحقق النهضـة الحضارية ويحافظ على استمراريتها وأفضليتها وهو يتبنى رؤية كونية ضيقة الأفق والحدود. فالعلاقة طردية ومتبادلة بين النهضة الحضارية والرؤية الكونية، فكلمـا كانت الرؤية الكونية أكثر اتساعاً ورقياً وواقعية كانت النهضة الحضـارية مماثلـة لهذه الرؤية المتميزة.

- **الرؤية الكونية والأيديولوجيا:**

تعتبر الرؤية الكونية المعنى المرادف للأيديولوجيا، **فالرؤية الكونية** عبارة عن: مجموعة من المعتقدات الكلية والنظرات الكونيـة المتناسـقة حـول الكـون والإنسان بل وحول الوجود بصورة عامة. **والأيديولوجيا** عبارة عن: مجموعة من الآراء الكلية المتناسقة التي تحدد رؤية الإنسان وتوجـه سـلوكه تجـاه الطبيعـة والمجتمع والإنسان. وعلى ضوء هذين المعنيين يمكن أن يُعتبر **النظـام العقائـدي** والأصولي لكل **دين** هو رؤيته الشـاملة وأيديولوجيتـه[37]؛ لأنـه يشـتمل علـى التصورات التي توجه سلوك الإنسان.

ولذلك اعتبر "شريعتي" الأيديولوجيا بمعنى العقيدة والإيمان، فقد عرفها بقوله: "هي رؤية كونية متحركة وهدف مشترك، وفي كلمة واحدة هي "**الإيمان**"، وهو ما يُوجد الحركة والقوة والوسيلة والوحدة في المجتمع"[38]. ويوضح "شريعتي" أن كلمة (أيديولوجيا) تتكون من (إيديا) **Idea**، بمعنى: الفكر، الخيال، الهدف، الصورة الذهنية، العقيدة. وكلمة (لوجي) **logy-**، بمعنى: المنطق والمعرفة، أي أن الأيديولوجيا تعني معرفة العقيدة. والأيديولوجي يعني صاحب عقيدة خاصة. والأيديولوجيا هي العقيدة الخاصة بجماعة أو طبقة أو أمة أو عرق ما. فليس هناك إنسان أو أمة تفكر إلا ولها أيديولوجيتها أي عقيدتها وإيمانها[39]. أي أن صورة وطبيعة هذه الأيديولوجيا التي تعتنقها أمةٌ ما، هي ما ستحدد لها مستقبلها وتدل على إمكانية تقدمها أو تأخرها. وصورة وطبيعة الرؤية الكونية التي تحملها الأيديولوجيا، هي ما ستحدد مدى تفوق أو تدني هذه الأيديولوجيا عن باقي الأيديولوجيات.

أ) رؤية كونية وأيدولوجيا دينية:

المشروع الإصلاحي الذي قدمه "شريعتي" قائم على أيديولوجيا دينية وهي (الإسلام والتشيع) الذي يمثل الذات الحاضرة في مجتمعه الإيراني. وبالتالي لا بد من معرفة عقيدة ومبادئ هذه اليديولوجيا على النحو الصحيح، والقيام بتصحيح فهم المُسلم لها؛ إذا أردنا أن تكون هذه الأيديولوجيا هي القوة الإيجابية الدافعة نحو التغيير والنهضة الاجتماعية والحضارية. ولذلك سعى إلى تخليص مبادئ الإسلام والتشيع من الصورة التاريخية والتراثية حتى تعود المبادئ إلى أصالتها، مثلما فعل **اللوثريون** مع مبادئ الإنجيل بتخليصها من سلطة الكنيسة والتفسير التاريخي[40].

ولذلك يوضح "شريعتي" أن (الأيديولوجيا) قائمة على (الرؤية الكونية)، وهو ما يعني أن صورة الأولى مرهونة بطبيعة الثانية، فيقول: الأيديولوجيا تعتمد على ثلاث مراحل، **أولاً:** (الرؤية الكونية): وهي نوع التصور والفهم الذي نحمله في أذهاننا عن العالم والحياة والإنسان. **ثانيًا:** (تبلور الأيديولوجيا): وهي المرحلة التي تولد فيها الأيديولوجيا، حيث نقدم أفكارنا وآراءنا التي تحمل نوع الانطباع والتقييم الانتقادي للمحيط وللقضايا، والذي على أساسه: تتحدد نظرتنا للأمور التي نحن نرتبط معها ومحيطنا الاجتماعي والفكري. **ثالثًا:** (الرؤية النموذجية): وهي المرحلة التي تُقدم فيها المقترحات وطرق الحل وكذلك النماذج المثالية من أجل أن نغير كل ما هو غير مثالي وما لانقبله في الواقع الراهن، وأن نجعل هذا التغيير **(هدفاً)** لإيديولوجيتنا[41].

الأيديولوجيا = الرؤية الكونية ← تقييم هذه الرؤية ← تقديم الحل بصورة نموذجية

ولذلك، ادرك "شريعتي" أنه بعد افساد الرؤية الكونية التي يقدمها الإسلام، فلا يُنتظر أن يحمل هذا الدين أي أيديولوجيا إيجابية تقوم بتحريك الإنسان المسلم نحو تقييم مشكلاته وتقديم الحلول التقدمية والمنطقية لها. ولهذا هاجم التشيع

الصفوي الذي قضى على رسالة الإسلام ورؤيته الكونية، ومن ثم جعل أيديولوجيا الإسلام سلبية لا تهدف إلى تحقيق الرؤية المثالية في هذه الدنيا، فالتشيع الصفوي مغلف برؤى مصلحية وفردية ونفعية خاصة تخدم العرقية والطبقية والسلطة، وأخرى باطنية تخدم التخدير والخداع باسم الدين لإبعاد المسلم عن العمل على هذه الحياة، وأن ينتظر نموذجاً مثالياً يتحقق في العالم الآخر.

ويتضح من خطوات تشكيل الأيديولوجيا الثلاث، أن الأيديولوجيا الإسلامية التي يسعى "شريعتي" إلى تحقيقها، هي أيديولوجيا دينيوية إيجابية مثالية وعملية، تسعى إلى التحقق على الأرض بشكل ظاهري وإيجابي، على عكس الصورة الباطنية السلبية الراهنة للإسلام والتشيع. وهذه الصورة الإيجابية والعملية لا تتحقق إلا إذا كانت الأيديولوجيا تعبر عن (عملية إنتقادية) **Critical process**، وهو اعتبره يتحقق في (التشيع العلوي) الذي يمثل "**بروتستانت**"[42] يرفض الرضوخ والاستسلام للوضع الراهن الفاسد، فيقول: الأيديولوجيا عليها أن تقدم الخطط النموذجية والمثالية والنماذج العملية من أجل تغيير الوضع الراهن **Status quo**، وهو ما يتطلب أن تحمل الأيديولوجيا عملية إنتقادية لكل ما هو موجود الآن، سواء كان معنوياً أو مادياً أو سياسياً أو طبقياً أو اقتصادياً أو ثقافياً أو أخلاقياً أو إنسانياً، فالأيديولوجيا تعمل على تحقيق ما هو يجب أن يكون، أي الوضع المثالي في حركة إيجابية تقدمية[43].

ولذلك، فالإيمان الذي قصده "شريعتي" بأنه يرادف الأيديولوجا، هو الإيمان الإيجابي الذي يعتمد على أصالة المبادئ ولا يمنح الأصالة لسلطة التراث والتاريخ على هذه المبادئ، أي الذي يؤمن بتحقيق المثالية على الأرض قبل السماء، ويعمل على تحقيق الصورة النموذجية بدلاً من الاستسلام للواقع القائم، فهو يدفع المؤمنين بهذه الأيديولوجيا، إلى تحمل المسؤولية والالتزام تجاه تحقيق المثاليات في الواقع العيني. فيقول "شريعتي": الأيديولوجيا عبارة عن الإيمان **الواعي** بـ (كيف يجب أن يكون) الوضع القائم[44]، أي أن الأيديولوجيا يجب أن تتمتع بالوعي وليس بالغفلة واللاشعور حتى تستطيع ادراك الحالة التي عليها الوضع الراهن كي تتمكن من تغييره. وهذا الإيمان الواعي يحتاج أولاً إلى رؤية كونية مبنية على تصور صحيح، حتى يستطيع الإسلام أن يقدم حلاً للبشرية.

ولهذا، وضع "شريعتي" تفسيراً عملياً ومنطقياً لعصر الأنبياء، بعيداً عن التفسير الاعجازي لدورهم في عصرهم، فيعتبر أن الإسلام يحتاج إلى نوع الإيمان الذي حمله (الأنبياء) أي أصالة مبادئ رسالة التوحيد، التي غيرت وجه مجتمعهم والبشرية. فالإيمان الواعي الذي حملوه، لم ينتظر ظهور فلاسفة أو فقهاء أو مثقفين أو نخبة كي يغير وجه المجتمع والعالم، فقط كان يحتاج إلى الجماهير الواعية التي تمثل القاعدة، التي تؤمن بهذه النوع من الإيمان الذي يحمل رسالة من أجل الإنسان، والذي استطاع أن يحطم أقوى السلطات التي واجهت أو زامنت عصر الأنبياء. أي أن دور الأنبياء ورسالتهم كان تخليص المبادئ من الصورة التاريخية

والتراثية، أي الإنتقال من سلطة التاريخ والمصالح الطبقية على المبادئ إلى سلطة أصالة المبادئ التي تعمل في خدمة كافة البشرية، وهو مبدأ التوحيد: (إله العالمين/ إله الناس)، وأن من يتولى ذلك **الناس** وليس فئة أو عرق أو طبقة ذات مكانة اجتماعية.

ولذلك عول "شريعتي" على خط الأنبياء وهذا النوع من الأيديولوجيا في تحقيق التغيير والنهضة في مشروعه الإصلاحي، فيقول أن الأنبياء كانوا أميين وبدون مكانة اجتماعية ويعملون في حرفٍ بسيطة، ولكنهم كانوا يحملون الإيمان الواعي الذي منح مجتمعهم (احتياجه) وأوجد الحركة للتغيير والتحرك للمستقبل، ولذلك مَثَّلَ هذا الإيمان الواعي أقوى قوة جبرية تُلزم التغيير وتحطم موانع الحركة للإمام[45]، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ}[46]، وهذه الغلبة كانت على الأرض وليس في السماء، ما يعني أن تحقيقها يستلزم إمتلاك أيديولوجيا أرفع وأقوى من التي يمتلكها العدو، حتى تمنح مؤمنيها الإيمان والتضحية وتزلزل المبادئ الضعيفة للطرف المقابل.

ب) رؤية كونية وإيدولوجيا منطقية:

تبنى "شريعتي" الرؤية الكونية والأيديولوجيا الإسلامية، وهما ذاتا طبيعة دينية، أي أن الرؤية الكونية هي من هذا النوع الذي يتناول عالم الغيب، ويعتمد على (الوحي) الإلهي في التصور الذي ينسجه حول الكون والوجود. والإيدولوجيا الدينية هي من النوع الذي يجنح إلى المثالية. وهو ما جعل التيارات الإسلامية على مدى التاريخ تقوم بتقديم رؤية مثالية فوقية غير قابلة التحقيق. أو تقديم رؤية عرقية أو طبقية أو طائفية تجعل الإسلام غير قادر على حمل رسالة واحدة للمجتمع الإنساني، مثلما فعلت الحكومات العنصرية، مثل العثمانيين والصفويين والأمويين. أو تقديم رؤية باطنية تجنح إلى بناء خيالي ما ورائي لا وجود له على الأرض، مثل الجماعات الصوفية والمذاهب الباطنية. وهو ما أدى إلى عجز الإسلام على تقديم أيديولوجيا دينية واقعية ومنطقية قادرة على تلبية احتياجات الإنسان المعاصر. وهو ما أدى في النهاية إلى هروب المجتمعات الإسلامية في العصر الحديث، الذي يوصف بعصر العلم والمعرفة، إلى الأيديولوجيات التي تعتمد على التزام المنطق والاحساس بالواقع، واحترام قوانين العلم، مثل التيارات المادية الإلحادية الوجودية والماركسية.

ولذلك، كان علي "شريعتي" أن يجيب كيف سيعتمد على أيديولوجيا دينية تحمل كل هذه الإشكاليات، وكيف ستتحقق في مجتمع يهرب منها. وكانت إجابته، أنه لا يمكن أن تنجح أيديولوجيا مثالية ما لم تستند على (المنطق)، فقد رأي أن تاريخ الأمم والمجتمعات الإنسانية، يمضي في مسير وحدة متصلة، ما يعني أنه يخضع لسنن وقوانين حتمية وثابتة، وأن الله ﷻ رهنَ إحداث التغيير في المجتمعات بفهم هذه السنن الثابتة {سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا}[47]، وأن أي محاولة إصلاح للمجتمع تعتمد على مثالية فوقية، دون فهمٍ لقوانين

المجتمعات، فهي محاولة عبثية. ولذلك، أكد "شريعتي" على ضرورة أن تكون الرؤية الكونية في الإسلام مبنية على المنطق والوعي والهدف الغائي والاحساس بالواقع وفهم قوانين مسير التاريخ والمجتمعات؛ حتى يمكن في النهاية إيجاد أيديولوجيا مثالية منطقية، قابل نموذجها للتحقيق على أرض الواقع، وتأتي استمراريتها وثباتها ليس من جانب ارتباطها بالمقدس والإيمان الراسخ الصلب فحسب، ولكن من جانب التزامها بالسنن والقوانين التي تحكم حركة التغيير والتطور في الأمم والمجتمعات والإنسانية، فإستمرارها العملي والإيجابي مرهون بالتزامها بهذه السنن الثابتة[48]. فمثالاً، المسلم المعاصر يؤمن بأفضلية دينه إيماناً يخالف واقعه العملي الذي يُظهر أنه لا يدرك سنن وقوانين التغيير، وكيف يستطيع دينه إحداث هذا التغيير دون الاعتماد على المعجزات والترويج لعالم مثالي غير واقعي.

5) الرؤية الكونية والاصلاح الديني والاجتماعي:

يحمل الإسلام رسالة كونية للعالم، ومن ثم فعليه أن يتمتع برؤية كونية واسعة تستوعب هذا العالم والإنسان، وتجيب على أسئلته مثل: مصير الإنسان وفلسفة خلقه وحقيقة حريته وإرادته ومسؤليته ومسيره في هذا العالم.

وحسب مفهوم الرؤية الكونية؛ فهي تتشكل في حدود الموقع الذي يحاول الإنسان منه الرؤية، وزاوية النظر التي يتخذها، والبيئة الطبيعية والنفسية والاجتماعية، والنظام الفكري بمكوناته اللغوية وأطره المرجعية الذي ينتمي إليه[49]. وهذا يعني أن الرؤية الكونية تتشكل من (الداخل) وتتخذ موقفاً تجاه (العالم الخارجي) وفق طبيعة هذا الداخل، أي أن الإنسان يبرز ذاته في مواجهة الكون بأسره من خلال صورة المحيط الذي يعيش فيه.

وهنا تبرز أهمية الإصلاح الديني على أساس أصالة المبادئ (التوحيد الخالص= إله العالمين/ إله الناس) ومن ثم الإصلاح الاجتماعي، فإذا أردنا أن ننظر إلى العالم بصورة نموذجية مثالية وتقدمية، فيجب أولاً أن تخرج هذه النظرة من محيط نموذجي ومتقدم، وهو ما يدل على أهمية الإصلاح الديني والاجتماعي؛ فكيف يتحدث الإسلام عن رؤية كونية تحمل رسالة عالمية، والواقع العيني داخل مجتمع مسلم ما لا يدل على هذه الرؤية السامية. مثل الواقع الذي أوجده التشيع الصفوي في خلق مجتمع طبقي وعنصري وجاهلي قائم على التمييز واللامساواة، فأي حديث سيقدمه الصفوي عن العدالة الاجتماعية في الإسلام على سبيل المثال، بالطبع لن يتخطى هذه الصورة العينية المشوهة لحقيقة العدالة الاجتماعية، أي يُخضع عدالة (إله الناس) إلى عدالة (إله خاص)؛ فهو لن يُقدم صورة مثالية للعدالة تقوم بتحطيم البنية الطبقية والعنصرية الراهنة للمجتمع الصفوي والمحصنة باسم المقدس.

ولذلك، يوضح "شريعتي" أن بداية المشكلة، تكمن في أن الرؤية الكونية هي حصيلة الحياة العينية أو الفعلية والنظام الاجتماعي والنظام الاقتصادي الذي

يتبع له الإنسان. أي أن المحيط الحياتي أو الاجتماعي ينعكس في نظرتنا الكونية، بمعنى أنه يظهر وينعكس في العالم الخارجي وصورة عالم الوجود الموجودة في (ذهننا)، والصورة التي تكون في (ذاتنا) تنعكس على صورة عالم الوجود الموجودة في (الخارج)[50]. صحيح أننا عند تشكيل الرؤية الكونية ننظر إلى العالم الخارجي، وليس العالم هو من ينظر إلينا؛ لكن موقعنا هو ما يحدد صورة هذه الرؤية.

وفي عبارة: "إن (العالم الخارجي) في نظر الفرد، هو الصورة المنعكسة للمجتمع والطبقة، في مرآة الواقع والشاشة العينية. فإن الذهنية وداخل الذات **Subjective** تعتبر رساماً ونحاتاً، ينحت العينية وخارج الذات **Objective**، ويلونها على صورته"[51].

ويستعين "شريعتي" في إيضاح ذلك برأي العالم الفرنسي "هنري برجسون"[52] الذي يقول: العالم الخارجي يكون في نظر الإنسان الذي يعيش في مجتمع مغلق **Closed society**، عالماً محدوداً وصغيراً وثابتاً. وعلى العكس من ذلك، يرى الإنسان المنتمي إلى مجتمع منفتح **Open Society**، العالمَ غير محدود وواسعاً ودائماً في تغيير. ويوضح "شريعتي" أن المجتمع المغلق هو المحصور في حصار أصوله وعقائده وتقاليده وأنماطه الخاصة، وبناء على ذلك فهو مجتمع راكد وثابت على مدى القرون والعصور[53]، فحركة التغيير فيه بطيئة، ومن الصعب أن يلاحق مثل هذا المجتمع حركة الزمن، وأن يقدم المجتمع النموذج للعالم. واعتبر أن الإسلام ومجتمعه في عهده الأول مَثَّل الدين والمجتمع المنفتح الذي تفوق على كافة المجتمعات والأديان المنغلقة والثابتة والمتحجرة، وهو ما كان ينتظره العالم، وهو ما جعل هذا الدين يحطم أبواب المجتمعات والحضارات الثابتة آنذاك. ولذلك ما قام به التشيع الصفوي أن قضى على انفتاح الإسلام ومجتمعه، وهو ما أدى إلى توقف حركته، وأصبح غير قادر على مواكبة الزمن، ومن ثم أصبحت الرؤية الكونية التي يقدمها الإسلام الصفوي للعالم ضيقة ومتخلفة وغير ملبية لاحتياجات العالم المسايرة لحركة الزمن.

وهذا يعني أن المحيط الحياتي للإنسان طالما هو قائم على صورة غير صحيحة، فليس من المنتظر أن يقدم إنسان هذا المحيط رؤية كونية مثالية. وهو ما يعني أيضاً، أن الرؤية والرسالة الكونية يجب أن تكون منطقية وواقعية، فكيف يتحدث المسلم عن سعيه إلى إحداث تغيير مثالي في العالم باسم الإسلام وهو يعيش في واقع لا يعبر عن هذه المثالية، الأمر سيصبح أشبه بالدعوة إلى المدينة الخيالية (يوتوبيا). وكيف أيضاً يبشر العالمَ بأن إيديولوجيته الدينية التي يملكها مجتمعه وهي الإسلام الراهن، قادرة على حل قضايا العالم، وهي غير قادرة على هزيمة الأيديولوجيات المادية العقلانية التي تجتاح مجتمعه بسبب ضعفها أمامها.

ويتضح هذا الأمر، حينما يبين "شريعتي" أهمية الرؤية الكونية، ويقول أنها تمثل **البنية التحتية Infrastructure** لأي مدرسة فكرية، والإسلام واحد من هذه المدارس؛ فمن خلال نظرة الإنسان إلى الكون فهو يبني فلسفته تجاه الحياة ووجوده

الإنساني، ويحدد هدفه في الحياة وينظم مسؤوليته ورسالته تجاه نفسه وتجاه المجتمع وتجاه العالم الإنساني، ويبني مدرسته العلمية التي ينظم على ضوئها حياته الشخصية والاجتماعية ويعمل طبق مبادئها[54]. فالرؤية الكونية هي التي تقود الإنسان في الحياة لأنها تشكل أيديولجيته التي تشكل طبيعة تفكيره.

ويتضح ذلك، من خلال نموذجين طرحهما "شريعتي" لشاعرين متصوفين كبيرين في الأدب الفارسي:

الأول: حافظ الشيرازي الذي يقول: (إن العالم وكل ما فيه عدم في عدم، إذاً فاغتنم اللحظة)[55]، ويعلق "شريعتي" على قوله، بأن الرؤية الكونية التي يحملها حافظ تجاه الكون هي أنه مجموعة من الظواهر التي لا شكل ولا ارتباط ولا هدف ولا غاية لها، مجرد لا شئ؛ ومن ثم حددت هذه الرؤية سلوكه الفردي والاجتماعي تجاه مجتمع والعالم (فاغتنم اللحظة)، أي أن هدف الرؤية الكونية والأيديولوجيا عند "حافظ" هو (لاشئ)، وهذه تمثل المدرسة العبثية التي تأسست رؤيتها للعالم على الفوضوية.

والثاني: هو مولانا البلخي الذي يقول: (لو ترفع ذرةً من مكانها، ينهار كل العالم من أصله)[56]، ويعلق "شريعتي": أن مولانا يرى أن العالم خُلق وفق معادلة دقيقة، ولأجل هدف وغاية محددة، وأن هناك موازين وسنن وقوانين تحكمه. وبالطبع الشخص الذي يحمل مثل هذه الرؤية، سيكون سلوكه الفردي والجماعي محسوباً ومنظماً وساعياً نحو غاية وهدف[57].

وهذا يعني أنه لا يمكن انتظار رؤية مثالية تجاه العالم من إنسان يعيش في مجتمع رجعي ثابت غير متطور ويدين بعقيدة منغلقة وتراثية؛ لأن رؤيته الكونية التي تمثل البنية التحتية لتفكيره وأيديولوجيته تخرج من صورة الواقع الذي يعايشه. ولذلك الرؤية التي ينظر بها إنسان المجتمع المتقدم والعصري إلى العالم خارج مجتمعه، تختلف عن رؤية الإنسان الذي يعيش في مجتمع يعيش خارج الزمن. فالرؤية الكونية للفرد تتحدد طبقاً لأبعاد مجتمعه المعنوية والمادية؛ فأي تغيير يقع على معالم مدينته من اتساع وتطور تنعكس على تصوره للعالم.

ومن أجل هذه المسألة، أكد "شريعتي" على أهمية الإصلاح الديني والاجتماعي؛ من أجل تصحيح الرؤية الكونية ومن ثم الأيديولوجيا التي يحملها المسلم، التي من المفترض أن تكون أفضل أيديولوجيا يحملها إنسان على وجه الأرض. فحسب التفسير الاجتماعي الذي قدمه "شريعتي" حول الإسلام، فالنبي "محمد" ﷺ حملت رسالته أيديولوجيا عالمية؛ لتوجيه سلوك كافة البشرية وإنقاذها، والأيديولوجيا التي حملها الإسلام حثت أفرادها على بناء مجتمع وفق أسس محددة، ومن ثم يصبح هذا المجتمع الإسلامي نموذجاً أمام المجتمع البشري[58].

ومن هنا، فلم تكن الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة لمجرد الفرار بدعوة دينية فحسب، أو لتأسيس سلطة أو طبقة قبلية عرقية في مواجهة سلطة أو طبقة عرقية أخرى؛ وإنما من أجل تغيير الأبعاد المادية والمعنوية للمحيط الذي يعيش

فيه المسلم، حتى يتشكل لدى المسلم رؤية كونية وفق الأبعاد الجديدة (المبادئ الأصيلة)، ومن ثم تتشكل لديه أيديولوجيا تتحكم في سلوكه تجاه العالم، تكون هذه الأيديولوجيا النموذج الذي تنتظره المجتمعات البشرية لإنقاذها وحل مشاكلها. فالمجتمع الذي ظهر فيه الإسلام في "مكة" كان مجتمعاً قبلياً مغلقاً قائماً على التمييز العرقي والبنى الطبقية، ومن ثم أفراد مجتمع هكذا لا يمكن أن يقدموا نموذجاً لحل مشاكل مجتمعات العالم التي تعاني من نفس أزماتهم. وعلى العكس من ذلك، سعى نبي الإسلام في مجتمع "المدينة" إلى القضاء على البنية الطبقية العرقية بالعدل والمساواة بين أبناء المجتمع، وإلى فتح آفاق المجتمع القبلي العربي وتطوير رؤيته للعالم عن طريق تنفيذ سياسة تستند على الاتصال بالقبائل المجاورة وبالحضارات المجاورة، وكلما انفتح هذا المجتمع على الآخر، كلما كان أكثر اتساعاً وشمولية في رؤيته الكونية تجاه العالم، ومن ثم كانت أيديولوجيته أكثر شمولية وعالمية لاستيعاب المجتمع البشري وحل قضاياه، وهو ما تأسس على مبدأ التوحيد(إله العالمين/ إله الناس). وهو ما أكد عليه "شريعتي" من خلال فهمه للهجرة على أنها ليست مجرد حادثة تاريخية؛ بل قانون فلسفي واجتماعي يعد من عوامل التمدن والتطور على مدى التاريخ؛ حيث كانت الهجرات من عوامل انتقال المجتمعات من البدائية إلى التحضر وبناء الحضارات، بداية من السومرية حتى الأمريكية[59].

ولذلك، ما فعله التشيع الصفوي بالإسلام كما يتضح من رؤية "شريعتي"، أنه قضى على أيديولوجيا الإسلام العالمية، وقضى على "مجتمع المدينة" المنفتح، وأعاد الإسلام الذي جاء من أجل تحقيق أيديولوجيا عالمية تعمل في خدمة المجتمع البشري ككل، إلى العمل في خدمة الأيديولوجيات العرقية والعنصرية والطبقية والمغلقة، وتحولت إيديولجيته الدينية المثالية الواقعية إلى إيديوجيا دينية مثالية خيالية، كما حدث في عهد الصفويين، وأصبحت أيديولوجيا الإسلام في خدمة الأمة الإيرانية على حساب باقي الأمم، أو في خدمة الأمة الشيعية على حساب باقي البشرية.

وبذلك تصبح أيديولوجيا الإسلام في الرؤية الكونية الصفوية غير قادرة على تلبية احتياجات العالم، لأنها خاضعة لأطر ضيقة ومحدودة بالنسبة لعالم الإنسان الأوسع. وهذه المسألة غاية في الأهمية، حين يتساءل رجل الدين التقليدي عن أسباب تقليد واتباع المجتمعات الإسلامية المعاصرة للأيديولوجيات الأجنبية المخالفة للإسلام كالشيوعية والرأسمالية الليبرالية المادية[60]. وهو ما أجاب عليه "شريعتي" من خلال طرحه، بأن الإسلام عندما قدم في بداية عهده أيديولوجيا تتمتع بالإنفتاح والعالمية والمثالية الواقعية القائمة على مبدأ التوحيد: (إله العالمين/ إله الناس)، استحق التفوق على كافة الأيديولوجيات والأديان الموجودة آنذاك كالفارسية والرومانية والمسيحية. ولكنه بعد أن تم القضاء على إيديولوجيته وحصره في إيدولوجيات ضيقة عرقية وعنصرية وخرافية، أصبح غير قادر على مجابهة إيديولجيات كالتي تقود المجتمع الغربي المادي؛ لأنها أكثر منطقية وإنفتاحاً من

(الإسلام الراهن). ولذلك لا غرابة أن تتجه أنظار المجتمعات الإسلامية إلى الأيديولوجيات المادية الإلحادية؛ لأنها وجدت فيها ما يلبي احتياجتها ويحقق لها خلاصها.

6) التوحيد أساس الرؤية الكونية عند "شريعتي":-

- **التوحيد:**

تبنى "شريعتي" رؤية كونية دينية إسلامية، ومن ثم فالأيديولوجيا التي نَظَّر لها تعتمد على أصول وأسس عقيدة الإسلام، وعلى رأسها "**التوحيد**" **Monotheism** الذي يمثل العماد الأساسي للعقيدة الإسلامية. وكذلك يمثل أهم الأسس التي قام عليها بناء مشروع "شريعتي" (التشيع العلوي). ولذلك الرؤية التي قدمها حول هذا المعتقد، كانت مختلفة عن التفسيرات التقليدية التي قدمها الفقهاء الشيعة حول معتقد التوحيد؛ فقد اعتمد على وعيه بتاريخ تطور مجتمعه الإيراني والمجتمع الغربي في تقديم تفسير لهذا المعتقد بما يحقق الرؤية الكونية التي تلبي احتياجات الإنسان بشكل عام وتتفوق على كافة الأيديولوجيات المطروحة في الفكر الإنساني، وتقدم حلاً لمجتمعه الإيراني الذي يعيش حبيساً داخل الرؤية الكونية التي نسجها ورسخ لها الفقهاء الصفويون، والتي جعلت مجتمعه يمتلك أيديولوجيا أضعف من الأيديولوجيات الخارجية، ولا تستطيع أن تقف في مواجهة قوتها.

والتوحيد في مفهومه التقليدي الذي قدمه الفقهاء، يعني: الاعتقاد في وجود إله واحد ونفي ما دونه، وإفراد استحقاق العبادة له وحده ﷻ. إلى جانب افرادهم المقالات الطوال عن توحيد الذات والصفات والأفعال والعبادة[61]. فالملاحظ أن كافة التفسيرات التي قدمها الفقهاء حول عقيدة التوحيد لم تتخط مفهوم الإيمان بالله الواحد والتأكيد على مسألة استحقاق العبادة له وحده، وأنه لا شريك له في الملك، وأن غاية الخلق هي **العبادة** لله ﷻ، **(**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا **لِيَعْبُدُونِ)**[62].

لكن "شريعتي" وجد أن تفسيراً هكذا لمفهوم التوحيد لا يحقق من الإسلام رسالة وهدفاً سوى الطاعة والعبادة للإله الواحد والاعتراف بوحدانيته؛ بينما الإسلام جاء من أجل إنقاذ البشرية وهداية الإنسان في حياته على الأرض، وجاء بعد مراحل متعاقبة من تاريخ الأديان والمجتمعات، ولذلك عليه أن يقدم إجابة للبشرية لحل كافة المآسي التي واجهتها، وهو ما عجز الفقهاء عن الإجابة عليه، واكتفوا بنقل الروايات وتوارث التفسيرات لمفهوم التوحيد؛ ولذلك سعي "شريعتي" إلى تقديم مفهوم له بنظرة عالم الاجتماع الديني، وبنظرة الإنسان الواعي لتاريخ الأيديولوجيات داخل مجتمعه الإيراني وداخل المجتمع الغربي الذي عايشه أيضاً، والذي يتمتع بإمتلاك أيديولوجيا أقوى مما يمتلكها مجتمعه، ومن ثم اخترق الفكر الغربي مجتمعه بسهولة.

وبالتالي كان عليه أن يضع تفسيراً لمفهوم **التوحيد** بما يساهم في تشكيل رؤية كونية دينية تكون أرقى وأوسع من كافة الأيديولوجيات المادية والدينية

المطروحة في الفكر الإنساني، وبما يحقق لدين الإسلام كونه أفضل أيديولوجيا عرفتها البشرية. وبما يساعده على تحطيم الرؤية الكونية الصفوية التي احطت من الإسلام وضيقت من سعة وشمولية رؤيته الكونية التي شملت كافة أركان الكون. ولذلك كان عليه أولاً، أن يحدد حقيقة مفهوم العبادة المستهدف منها خلق الإنسان حتى يستطيع تقديم مفهوم التوحيد وفق الرؤية الكونية كما طرحها.

❖ **ما العبادة ؟**

لم يقدم الفقهاء المسلمون وظفية لعقيدة التوحيد سوى مفهوم الخلاص من أي عبودية لدون الله ﷻ وافراد العبادة له وحده، ولطالما استشهدوا بالآية الكريمة (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْأِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[63]؛ وهو ما جعل المسلمين والفقهاء يضعون الآخرة نصب أعينهم، ويكثفون جل اهتمامهم بمسألة التقرب إلى الله ﷻ وتفسيرهم للعبادة بمعنى الصلوات والفرائض التي يتقرب بها المسلم إلى الله من أجل نيل ثواب الآخرة. وهو ما عزز من الرؤية **الآخروية** لمفهوم الدين ودوره في الحياة.

بالبطع كان "شريعتي" يريد أن يضع تفسيراً **للعبادة** بما يحقق **للتوحيد** مفهوماً أوسع من مفهوم افراد الصلاة والطاعة لله الواحد، وبما يحقق للدين دوراً في الحياة؛ حتى يستطيع أن يغير من المفهوم الأخروي للدين الذي يروجه الفقهاء في مجتمعه. وأن يساهم مفهوم التوحيد في تحقيق رؤية كونية دينية مثالية منطقية وعلمية. ولذلك اعتبر أن العبادة ليست فقط بمعنى الصلاة والدعاء والفرائض؛ بل كل هذه الشعائر تمثل جانباً من مظاهر العبادة.

واعتبر أن المقصود في الآية الكريمة من (لِيَعْبُدُونِ) أي (ليعرفون)، أي معرفة السنن والقوانين التي أودعها الله ﷻ في كل حركات ومكونات الكون[64]. فالإسلام بمعني التسليم لإرادة الله، والعبادة بمعنى الخضوع لإرادة الله وتعبيد وتذليل الطريق نحوه. وأن الإنسان عندما يُسلم ويضع إرادته تحت **إرادة** الله، التي لم تكن عبثية في الكون؛ بل كانت محكمة بقدر وحكمة وغاية ودقة منظمة، فمعنى هذا أن عليه أن يتبع القوانين والسنن التي وضعها الله في كل مكونات الكون من إنسان وطبيعة وحياة في الأرض، فكل حركة تدور في الكون وفق نظام دقيق ومحدد، وعلى الإنسان أن يتبع هذه القوانين والسنن إذا أراد أن ينجو، ويسلك طريقه إلى الله[65].

فالإنسان يتوجب عليه أن **يعبّد الطريق** أي يمهده ويذلّله، إذا أراد أن يسلك الطريق وأن يرتقي إلى الله، وهذا لن يكون إلا بالتسليم إلى إرادة الله، التي هي السنن والقوانين التي نظم بها كونه وحكمه بها. ولذلك يفسر "شريعتي" معنى (الصراط المستقيم) في الآية الكريمة: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)[66]، بمعني الطريق الصحيح الذي يجب أن يسلكه الإنسان في الدنيا إلى الله؛ وليس في الآخرة كما فسر بعض الفقهاء للعبور إلى الجنة، وإلا ما فائدة الدعاء بالهداية ؟!، وما فائدة هذه الهداية إن كانت في الآخرة ؟!. وأن استقامة هذا الطريق تتحقق بتعبيّده، وهو الإنصياع لقوانين الله التي أودعها في خلقه ومعرفتها[67].

ويقارب "شريعتي" هذا التفسير لمفهوم العبادة –وهو "**تعبيد الطريق إلى الله، عن طريق إلتزام سننه وقوانيه في الكون**" –**بالمهندس الزراعي** المتعلم **والبستاني** الجاهل، فالأول يمثل الإنسان الذي يطيع ربه بالبحث وراء القوانين والسنن التي أودعها الله في النبات والماء والهواء، ومن ثم تتحقق إرادته ويحصل على الهدف المطلوب من زراعته، ويرتقي هذا الهدف كلما تطور في إدراكه وفهمه لهذه السنن والقوانين. وعلى العكس، يمثل البستاني الجاهل الإنسانَ العاصي؛ لأنه لم يستطع النجاة بزرعه بسبب جهله بسنن الله ومعارضته لها، ولذلك لم يتحقق هدفه لأنه لم ينصع لإرادة الله التي هي قوانينه في الكون[68]. وهذا المثل ينطبق أيضاً على المتدين الجاهل بحقيقة الوظيفة من إسلامه، وعلى المتدين المدرك لوظيفة دين الإسلام بما يحقق له النجاة في الدنيا والآخرة.

كان "شريعتي" يسعى من وراء هذا الفهم إلى إيجاد تفسير يقدم معنى "للعبادة" **Worship** بما يعيد الدينَ إلى العمل في الدنيا قبل الآخرة، وبما يقضي على التفسيرات الآخروية للإسلام التي روج لها رجل الدين التقليدي، والتي همشت من دور الدين في الدنيا، وحولت آيات القرآن –التي تدعو إلى التدبر والتفكير وفهم سنن الكون، وتحقيق النجاة بالمعرفة والوعي وإتخاذ الأسباب–إلى طلاسم وتعاويذ تُستخدم لتحقيق الرغبات والخلاص من الآلام. فبهذا التفسير وضع "شريعتي" رجال الدين التقليديين في مواجهة مع الدين. وأيضاً، بما يميز عبادة **إلـه التوحيد** عن عبادة **الإله الوثني**؛ فالأمر لا يقتصر على الخضوع والتسليم واستمداد العون والمساعدة من القوة المطلقة؛ بل لا بد من دور لهذا الاعتقاد في حياة الإنسان على الأرض.

وقصد أيضاً من هذا التفسير تشكيل أيديولوجيا دينية منطقية وعلمية، وهو ما يخدم الرؤية الكونية التي تبناها، ويقضي على حالة التناقض والتنافر بين الدين وأوجه الحياة؛ فبهكذا تفسير لم يعد الدين في مواجهة مع العلم، وأصبح في حالة اتساق مع الحركة المستمرة للحياة؛ فالإنسان تتحقق عبادته بإلتزامه بسنن وقوانين الله التي أودعها في خلقه، والتي يكتشفها العلم كل يوم. ويكون التقرب إلى الله بأن يدقق ويتدبر الإنسان في الكون أكثر، حتى يتطور إدراكه ووعيه بالسنن التي تحكمه، ويحقق الغاية من وجوده على الأرض، التي هي **التكامل** نحو المجتمع المثالي عن طريق الوعي والمعرفة في الطريق إلى الله، فالإنسان **البدائي** لم يتطور إدراكه ولم يتحسن مجتمعه إلا عن طريق اكتشاف المعرفة. ولذلك يفسر "شريعتي" قوله ﷻ: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماء كُلَّهَا}[69]، بأن الله قد أودع في آدم أسماء الأشياء، وأن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على التعلم واكتشاف الأشياء والحقائق وفهم قوانينها العلمية وتفسير ظواهرها، والتطور في فهمها وتفسيرها. وأن الإنسان منذ آدم وهو مهمته التطور في اكتشاف سنن وقوانين هذه الأشياء حتى يتكامل وعيه ومعرفته ومن ثم يتطور ويتكامل مجتمعه[70]، فالتكامل يتحقق بإدراك القوانين والسنن التي تحكم الكون وتفسر كيفية نضوج المجتمعات، وليس بأن يقف الإنسان

في تضاد مع هذه القوانين، وهو ما ظهر من الإنسان المتدين التراثي الذي يرفض مبدأ التغيير باسم الدفاع عن المعتقد والدين، بينما تعاليم الإسلام لطالما حثت على التأمل والتدبر وفهم السنن التي تحكم هذا الكون الثابت في قوانينه والدائم في حركته.

سعى "شريعتي" أن يكون التفسير الذي قدمه حول العبادة، مفسراً ومتسقاً أيضاً مع قوله سبحانه ﷻ (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)[71]؛ أي أن خلافة الإنسان لله في الأرض، هي أن يصلح فيها ويعمرها بأن يكتشف نواميس وسنن الحقائق التي علمها **الله** ﷻ **لآدم**، وهكذا تكون عبادته لله؛ أن يثبت صحة **إرادة الله** من خلق **آدم** أمام اعتراض **الملائكة** (إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ)، بأن هذا الكائن قادر على اكتشاف سنن الله في خلقه، وسيستخدمها في إصلاح الدنيا، فالله لم ينفِ عن آدم قول الملائكة: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء)، وأن الإنسان لن يُفسد هو أيضاً في الأرض؛ وإنما لديه علم بأن هذا الإنسان قادر وهو مُخير على خلافته واتباع سننه[72]. وهذا يفسر أن الصالحين الذين يخلفون الله ويرثونه في الأرض[73]، هم الذين يتحملون مسؤولية اكتشاف سنن الله لإعمار الأرض وليس الآخرة[74]. وهذا يدل على أن هؤلاء الصالحين مكلفون بأن يكون فهمهم للدين بما يحقق رؤية كونية وأيديولوجيا تسع كافة المجتمعات البشرية على الأرض، وليس مجتمع مخصوص منها، وهو ما يقوض الرؤى الكونية والإيدولوجيا الإسلامية المطروحة داخل مجتمع "شريعتي" وخارجه.

بلاشك أن التفسير الذي قدمه "شريعتي" لمفهوم **العبادة**، هو من نظرة عالم الاجتماع الديني، فمن خلال وعيه بتاريخ المجتمعات والأديان، سعى إلى تحطيم كافة التفسيرات التقليدية التي توارثها مجتمعه المتدين، والتي أدت إلى إيقاف حركة تغييره وتطوره، وأصبح الدين عقبة أمام كل حركة ومطالبة بالتغيير. لدرجة أن أصبح الدين مضاداً للعلم. وهو ما دفع أبناء مجتمع هكذا إلى الهروب للأيديولوجيات الغربية المادية الملحدة. وهو ما دفع "شريعتي" للبحث عن تفسير للعبادة بما يساعد على خلاص مجتمعه من سطوة الدين الإرثي والتاريخي، وأيضاً بما يحقق له أيديولوجيا دينية تتمتع بما تمتلكه نظيرتها المادية من تقدير للمنطق والعلم. وأيضاً، أن تتجاوز أيدولوجيته أخطاء الأيديولوجيا المادية التي استعبدت الإنسان باسم المادة. فهو كمفكر وعالم اجتماع يريد أن يطرح لمجتمعه أيديولوجيا أكثر قوة من نظيرتها الدينية التي تسيطر على مجتمعه، وأكثر من نظيرتها الفلسفية المادية التي يهرب لها مجتمعه[75].

❖ أي توحيد ؟

نمط العبادة الذي حدده "شريعتي"، بأن تكون حياة الإنسان على الأرض في طريقه إلى الله الواحد، وأن يكون هذا الطريق معبداً بالإنصياع لإرادة الله، التي هي سننه وقوانينه في الكون، والتي نعرفها بالتدبر والعلم، يفرض التساؤل حول

صورة التوحيد لهذا **الإله الواحد** كما طرحه في رؤيته الكونية وأيديولوجيته الدينية. لا سيما أن مجتمعه المتخلف باسم الدين يؤمن بالإله الواحد، وفكرة الوحدانية أيضاً موجودة في أديان أخرى، فلا بد أن يكون مفهوم التوحيد أكثر تقدمية وأرقى حتى تستطيع الأيديولوجيا الدينية التي طرحها "شريعتي" التفوق على نظيرتها التي يمتلكها مجتمعه، وحتى يبرهن على أن الإسلام كأيديولوجيا مطروحة للعالم هي أفضل الأديان.

فنجد "شريعتي" يقف في مواجهةٍ أمام تيارات فكرية عدة، منها المادية التي اخترقت مجتمعه الإيراني كالماركسية والليبرالية الغربية، ومنها التيار الشيعي التراثي المحافظ، والتيار القومي الفارسي، والإتجاهات الباطنية الغنوصية، وكلها تحمل رؤى كونية وأيديولوجيات متصارعة، وكل واحدة منها كانت نتاج جدل مع أخرى.

ولأن التيار المادي متصل بالعالم الغربي، ولأنه يتبنى سلطة العلم والعقل المادي، فهو التيار الذي تُقبل عليه الأجيال الجديدة في مجتمع "شريعتي" الإيراني، ويمثل تهديداً للأيديولوجيات الدينية التي أيديولوجيته واحدة منها. فالتيار المادي لا يؤمن إلا بالجزء المادي الحسي الملموس من العالم، ويؤمن أن فكر الإنسان ووعيه هو نتاج لتطور الطبيعة، فالعالم المادي مقدم على العالم اللامادي، فالمادة تسبق الفكر والوعي؛ ولذلك لا يعتقد في الرؤى المثالية التي تؤمن بما وراء المادة، ومنها الأديان، فهو لا يعتقد إلا بعالم واحد، وهو العالم المادي، ولا يفتش عن علة ومنبع أزلي لوجود الكون خارج المادة والطبيعة؛ ولذلك ينكر وجود الله والعالم الماورائي، ولا يعتبر أن للوجود هدفًا أو شعورًا أو وعيًا أو يملك نظاماً متجانساً، ولا ويقدس إلا العقل والعلم المادي[76].

كان "شريعتي" ينظر للأيديولوجيا المادية بعين عالم الإجتماع الذي يؤمن بأن هذه الرؤية ما هي إلا رد فعل لإنقاذ الإنسان مما فشلت الرؤية والأيديولوجيا الدينية في تقديمه من حل لآلامه وقضاياه، وبعدما أصبحت سبباً لصراعاته ومعاناته، وهو ما مثلته الأيديولوجيا "الشيعية الصفوية" داخل مجتمعه الإيراني. وكان يرى أن الأيديولوجيا المادية فشلت هي أيضاً في تحقيق السعادة والنجاة للإنسان بعدما استبدت به باسم سلطة المادة والعقل، ولأنها قامت على أساس التضاد[77].

ولذلك اعتبر أن الإعتقاد **بالتوحيد** لا يقتصر على الإيمان بالإله الواحد؛ بل التوحيد هو **(رؤية كونية توحيدية) Monotheistic worldview**، وأن هذه الرؤية هي الحل لما عجزت أن تقدمه الرؤى الكونية الدينية الشركية والمادية. وأن التوحيد يعني: "اعتبار الكون بأكمله وحدة بدلاً من تقسيمه إلى الدنيا والآخرة، والطبيعة وما فوق الطبيعة، والجوهر والمعنى، والروح والجسم. ويعني أيضاً اعتبار كل الوجود كشكل واحد، كجسم واحد، حي وواع، يملك إرادة وفكراً وشعوراً وهدفاً"[78]. وهذا الرؤية بلا شك تخالف الرؤية المادية للعالم؛ لأنها تؤمن

أن هذا الكون تحكمه قوانين ثابتة ما يجعله في حالة انسجام وانتظام، وله حياة واحساس وهدف، ولا تقبل بالتناقض أو عدم التجانس في العالم.

أراد "شريعتي" أن يجعل من عقيدة التوحيد **(رؤية كونية)** لها بعد عالمي ومادي ينعكس على هذا العالم وعلى حياة الإنسان، وليست مجرد عقيدة ماورائية، فيقول: "من يؤمن بأن الكون بأسره مخلوق بواسطة قوة واحدة، وأن هناك قدرة واحدة تتحكم في كل هذا الوجود من مجتمع إنساني أو حيواني أو نباتي أو حتى الجمادات، وأنه لا تأثير لأحد سواه، وأن كافة الموجودات من أشياء وأشخاص وألوان وأجناس وجواهر من يد خالق واحد؛ فهذه الوحدانية لله في الكون تفرض (الرؤية الكونية التوحيدية) التي ترى أن للتوحيد انعكاساً على صعيد الحياة الإنسانية؛ لأن من يؤمن بأن الكون عبارة عن امبراطورية واحدة، في يد سلطة واحدة، وأن كافة البشر من أصل واحد، ويهتدون بإرادة واحدة، ويتجهون إلى جهة واحدة، ولهم إله واحد تضمحل أمامه كافة القوى؛ من يؤمن بذلك سوف ينظر أيضاً إلى العالم بنظرة كلية يراه بها كأنه جسد واحد تتحكم فيه روح وسلطة واحدة، وبنفس هذه النظرة سيرى البشر متساوين ومتماثلين لأنهم خُلقوا بيد واحدة وعلى شكل واحد"[79].

كان "شريعتي" يريد ألا يكون التوحيد أمر غيبي، بما يجعله لا ينعكس على الحياة الإنسانية والاجتماعية؛ بل أراد أن يكون الاعتراف بالإله الواحد له من التأثير على حياة الإنسان بما يحدد له كيفية بناء مجتمعه. كما أراد أن يستغل الفهم الذي قدمه حول **عقيدة التوحيد، والرؤية الكونية** التي تشكلت منها، في إحداث تغيير داخل مجتمعه الطبقي بما يقوض الرؤية الكونية الدينية التي شكلها "**التشيع الصفوي**"، التي حطت من عالمية الإسلام، والتي تسببت في ضعفه أمام الأيديولوجيا المادية. وأيضاً بما يعيد للإسلام إمتلاك أيديولوجيا أقوى وأوسع أمام الأيديولوجيا المادية التي تهدد بإحتلال مجتمعه، ولذلك يقول: "التوحيد في بعده الاجتماعي يعني الوحدة الحقيقية بين كافة الجماعات والطبقات والأعراق الإنسانية؛ لأن الإنسان من أصل واحد. وفي التوحيد لا يمكن أن يكون هناك تضاد وتناقض، ولهذا فإن كان هناك تناقض أو صراع طبقي أو عرقي أو إنساني فهو خطأ؛ لأن الأساس في بناء هذا العالم هو **التوحيد**، وفي التوحيد لا توجد تناقضات أو صراعات، وفي بُعده الاجتماعي يبني الوحدة الإنسانية والطبقية والعرقية"[80].

بالبطع هذا التوظيف الاجتماعي للتوحيد يساعد "شريعتي" في القضاء على الطبقية الدينية والعرقية داخل مجتمعه، التي عملت على تمييز مكانتها عن باقي طبقات المجتمع. وأيضاً يساعده هذا التوظيف في نسف الصورة الراهنة للتشيع وجماعته، والتي جعلت من إله التوحيد إلهاً خاصاً لأصحاب هذا المذهب، بما قضى على عالمية الإسلام ورسالته من أجل الإنسانية جمعاء.

كان "شريعتي" يسعى إلى تحويل التوحيد إلى (شعار ثوري) **Revolutionary slogan**، فبدلاً من أن تكون "لا إله إلا الله" أو "لا حول ولا قوة إلا

بالله" مجرد أوراد ذكر كما روج لها "التشيع الصفوي"، تتحول إلى شعارات ثورية ترفض كل قوى تؤدي إلى القضاء على الرؤية الكونية التوحيدية، بأن الله واحد، والتاريخ واحد، والإنسانية واحدة، وحتى إن كانت هذه القوى هي نفسها ترفع شعار التوحيد. ولهذا كان يعتقد أن التوحيد هو الشعار الثوري الذي أعلنه كافة الأنبياء حينما أرادوا النجاة والخلاص لمجتمعاتهم، فهو كان بمثابة البنية التحتية للعالم الذي ينشدونه، وهو ما جعل المحرومين والمعذبين يفهمونه أكثر من باقي الناس[81]، لأنه يمنحهم الخلاص في الدنيا قبل الآخرة. أما باقي القوى داخل المجتمع التي لا تؤمن بالتوحيد، فإعلان هذا الشعار يهدد مصلحتها ويقوض البنية التي صنعوها داخل المجتمع بما يحمي طبقيتهم وتميزهم داخل المجتمع ولذلك هم حاربوا التوحيد[82]. ولذلك رفع "شريعتي" نفس هذا الشعار (التوحيد) في مواجهة كافة القوى التي سعت إلى استعباد الإنسان أو استغلاله، والتي حافظت على التمييز الطبقي داخل مجتمعه، سواء التي روجت بأن الخلاص في الآخرة كما فعل رجل الدين التراثي والتشيع الصفوي، أو كما فعل أصحاب الرؤية المادية الذين اخضعوا الإنسان لسلطة المادة وجدليتها.

- **رؤية كونية توحيدية وأخرى شركية**

يرى "شريعتي" أنه منذ بدء تاريخ الإنسان على الأرض، وهناك صراع بين **التوحيد والشرك Polytheism**، وأن تاريخ الأديان والمجتمعات يثبت أنه لطالما كان هناك صراع بين **الرؤية الكونية التوحيدية والرؤية الكونية الشركية**، أي أن الاعتقاد بالتوحيد أو الشرك كان بالأمر الذي ينعكس على المجتمع الإنساني ويحدد مصيره.

ويوضح أن هذا الصراع بدأ منذ **(هابيل وقابيل)**، وهي المرحلة التي انقسمت فيها وحدة ذاتية الإنسان (آدم) إلى تعدد ذاتية الإنسان، فلم يعد الإنسان واحدًا، ولم يعد مصيره على الأرض واحدًا، ومن ثم ظهرت (المصلحة الخاصة) و(الإنسان الخاص)، وبالتالي انعكست هذه الصورة الشركية للمجتمع الإنساني على الرؤية الدينية، وظهر (الإله) الخاص الذي يخدم المجتمع الشركي، وهو ما سماه "شريعتي" بـ (الرؤية الكونية الشركية)، حتى وإن كانت تعلن التوحيد ولكنها تخالف مفهومه.

فالمجتمع في (الرؤية الكونية التوحيدية): "تابع للكون، أي أن النظام السائد على الحياة المادية محكوم ومعلول للنظام السائد على عالم الوجود، وبتعبير أسهل: إن كل ما يمضي على وجه الأرض، هو انعكاس عن ما مضت به إرادة الله العظيمة"[83]، أي أن النظام الاجتماعي يجب أن يكون صورة من الرؤية التوحيدية التي ترى أن الإله واحد والإنسان واحد، وسنن الله وقوانينه التي تحكم الكون واحدة، وبالتالي صلاح الحياة الاجتماعية يأتي من الإلتزام بهذه الرؤية، وأن أي شرك اجتماعي من مظاهر التمييز الطبقي أو العرقي أو عدم الإيمان بوحدة الإنسان أو الإيمان بالنفعية والمصلحة الخاصة، فهو لا يتلاءم مع اعتقاد التوحيد.

أي أن (التوحيد الإلهي) منذ "**آدم**" كانت رسالته إنشاء (نظام التوحيد الاجتماعي)، بينما (الشرك الإلهي) كان نتاج (نظام الشرك الاجتماعي)؛ لأن العالم لا يحكمه إلا إله واحد. وهذه الرؤية التي قدمها "شريعتي" تنسف الرؤية الدينية الشيعية الصفوية التي تصنع من إله التوحيد إلهاً خاصاً، ومن الشيعي إنساناً خاصاً، وهي بذلك (رؤية كونية دينية شركية). وأيضاً تواجه رؤيته الرؤية الإلحادية التي ترى أن الدين سبباً في صراع الإنسان.

فالرؤية الكونية الشركية لم تكن تعمل من أجل البشرية جمعاء، كما لم تكن من أجل إله واحد؛ فالإله فيها يعمل عمل (الإله الوثني)، فكل قبيلة أو قومية كانت تؤمن بإله خاص يعطيها ويمنع عن الآخرين، ينصرها ويهزم الآخرين، فالآلهة الشركية هي مظهر لعرق أو أو قبيلة ما[84]. كما أن الديانات متعددة الآلهة ظهرت داخل الأمة الواحدة بهدف تبرير النظام الطبقي والتمييز الاجتماعي. فالرؤية الكونية الشركية هي التي أوجدت الصراع بين البشرية باسم الإله الخاص والمصلحة الخاصة، وهي التي دفعت الإنسان الغربي المتعلم إلى رفض الدين للتخلص من هذا الصراع، فلم يعد يقتنع بالدين بمنطق الفلسفة أو بقوة العاطفة الدينية[85].

رأي "شريعتي" أن المجتمعات البشرية لطالما كانت تجد **خلاصها في التوحيد**، وأن الرؤية التوحيدية كانت الملائمة دائماً للوحدة البشرية؛ فالشعور الديني الذي كان يتكامل مع تطور مجتمع الإنسان وفكره، كان دائماً يمضي نحو "التوحيد"، فالديانات البدائية كعبادة الحيوانات ظهرت في المجتمعات البدائية، وحينما تكامل المجتمع البشري من مجتمع أصغر إلى مجتمع أكبر، وانتقل من القبيلة إلى القرية، ثم إلى المدينة وإلى الإقليم وإلى الأمة الحضارية، كان لابُدّ من وحدة إلهية تتواءم مع هذه الوحدة البشرية وتحافظ على تماسكها، حتى وإن ظهرت آلهة عدة فكلها كانت تندمج في نظام وحداني على رأسه الإله الأكبر، وهو ما تشهد عليه الحضارات الفارسية والمصرية[86].

يريد "شريعتي" أن يصل من نتائج تاريخ الأديان والمجتمعات، إلى أن **(أنبياء التوحيد)** لم تكن رسالتهم من أجل تبليغ أمر غيبي أو بعيدة عن واقع مجتمعهم؛ وإنما كانوا مُصلحين جاءوا من أجل إصلاح مجتمعاتهم وتقديم الخلاص للإنسان على الأرض قبل السماء، ولمسوا واقع الفساد داخل مجتمعاتهم، فرسالة (التوحيد) لم تكن تدعو الناس إلى عبادة الإله الواحد بدلاً من عبادة آلهة عدة فحسب؛ بل كانت تطرح (الرؤية الكونية التوحيدية) في مواجهة (الرؤية الكونية الشركية)، أي أن الرؤية الكونية التوحيدية التي حملها الأنبياء جاءت لتقضي على الشرك الاجتماعي، أي على التضاد داخل المجتمع من بناء طبقي وعنصري وتمييز بين الإنسان وأخيه، وتنقذ الإنسان من الرؤية المادية التي لا ترى ما وراء الكون المادي، ومن الرؤية الماورائية التي لاترى إلا عالم الغيب، وتهب الطبيعة والإنسان معنىً ووعيًا وهدفًا، فهي تنفي تفاهة العالم وعبثه، وعدمية الوجود

والإنسان[87]. ويجد "شريعتي" في تاريخ الأنبياء الإبراهميين الدليل على ذلك، فالنبي "**موسى**" عليه السلام حارب القوى الثلاثة (فرعون، قارون، بلعم) التي قضت على وحدة الله ووحدة الإنسان ووحدة المجتمع البشري، والنبي "**محمد**" ﷺ اتبعه العبيد والفقراء؛ لأن التوحيد يخلصهم من الشرك الاجتماعي الذي يذلهم باسم الطبقية والتمييز العرقي[88].

❖ **أي إله توحيد ؟**

كان على "شريعتي" أن يحدد أي "إله توحيد" هو؛ حتى يتضح الفارق بين عبادة هذه الإله وبين عبادة الصنم، أو الفارق بين عبادة توحيدية وأخرى، لا سيما أنه خالف الرؤية الكونية الصفوية في تصورها للإله رغم أنها تلتزم بعبادة إله واحد أيضاً. فعبادة الإله الواحد ليست لأن هذا الإله وحده هو من يستحق العبادة فحسب، بل لابُدّ أيضاً من دور لصورة هذا الإله الواحد في حياة الحياة البشرية بما يظهر أن عبادته هي الخلاص الوحيد للإنسان.

ولذلك سعى إلى وضع معيار يحافظ على الصورة الخالصة لإله التوحيد بما يجعل المسلمَ قادراً على التمييز بين دعوة توحيدية وأخرى، فيقول: "إن ذلك الإله الذي أؤمن به، إلهٌ لا يجعل بيته مثل معابد الآخرين وسيلة لنهب البشر؛ بحيث نرضيه بإعطاء النذور والإتاوات لممثليه!، ذاك الإله الذي يجعل من الناس عيالاً له وأسرة له، إلهٌ يسمى بيته "بيت الناس"، إلهٌ يقف إلى جانب الإنسان ويتعاون ويتعاطف معه، ويعارض الظلم والجور والفساد في المجتمع البشري"[89].

أراد "شريعتي" أن تستقيم (صورة الإله) مع (الوحدة الإلهية) التي بدورها تؤسس لـ (الوحدة الإنسانية)، فيبحث في آيات القرآن، ويجد أن صورة (**إله التوحيد**) لا تستقيم إلا إذا كان هذا الإله هو (**إله الناس**)؛ فالله ﷻ قرن اسمه بالناس: (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ. مَلِكِ النَّاسِ. إِلَهِ النَّاسِ)[90]، وقرن بيته بالناس: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)[91]، وكلف نبيه محمد ﷺ بتبليغ رسالته للناس: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[92]، والأمة المسلمة تشهد على الناس بالرسالة التي تسلموها من محمد ﷺ: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)[93]، والغاية من الإسلام العودة لأمة الناس (وحدة الإنسان): (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ)[94]، فالله ﷻ لم يقرن اسمه بالمسلمين؛ لأنه إله (العالمين): (الحمد لله رب العالمين)[95].

أي أن الإسلام يحمل رسالة الإله الواحد إلى كل البشرية، بل إلى الكون كله، وأن هذا ما يميز إله التوحيد عن الإله الوثني الذي يختص بجماعة أو بأمة أو بعرق ما، والذي يظن المؤمنون به، أنه يعطيهم وحدهم ويحرم الآخرين. وأن أي دعوة باسم "الله" الواحد، أو بإسم الإسلام لا تلتزم بصورة (إله الناس)، أي لا تكون رسالتها

من أجل الناس جميعاً؛ فهي دعوة تؤسس إلى (رؤية كونية شركية)؛ لأنها تقوم على النفعية الفردية والمصلحة الخاصة وتؤسس للتضاد داخل المجتمع البشري وتحصر (رب العالمين) في خدمة حدود ضيقة، أي تصنع من (إله الناس) إلهاً خاصاً لخدمتها، فتوحيد (الربوبية والألوهية) مشروط عند "شريعتي" بتوحيد (المجتمع البشري)؛ وإلا أصبح إله التوحيد يقوم بعمل الإله الوثني الخاص.

يرى "شريعتي" أن الله الواحد وضع مكانه في قرآنه في جبهة الناس وليس في مواجهتهم، فيمكن التبادل بين الله والناس في الآيات القرآنية التي تعالج المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية؛ لأن الأمر يتعلق بمصير الناس في الحياة، ومطالبتهم بعبادة الإله الواحد هو من أجل وحدة هذا المصير، فالتوجه للصلاة والتعبد وأداء المناسك إلى الله ﷻ يكون في علاقة **طردية** مع التوجه للعمل من أجل الناس والحياة، وليست العلاقة **عكسية** كما فهم المتدين التقليدي بأن عبادة الله تعني هجر الناس وترك الحياة والهروب إلى الآخرة، وأن العمل من أجل الحياة يعني هجر الله والدين، وهو ما أدى إلى ظهور ضدية بين الله والإنسان، وبين الدين والحياة، وبين الدنيا والآخرة. فالله ﷻ غني عن عباده فلا تنفعه طاعة ولا تضره معصية؛ وإنما عبادته تكون لصلاحهم جميعاً، ولذلك يقول الله ﷻ: (إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ)[96]، فالمقصود من (الله) في هذه الآية هم (الناس)[97].

ويسعى "شريعتي" من وراء الصورة التي أظهرها لإله التوحيد بأنه (إله الناس)، إلى استعادة (الرؤية الواسعة) **Wide vision** للرؤية الكونية الإسلامية بعدما قضت عليها الرؤية الكونية الصفوية التي قيدت رؤية الإسلام لخدمة أطرٍ قومية وعرقية وطائفية.

فهكذا قانون: (إله العالمين/ إله الناس = سعة الرؤية الكونية)، يمنح الإسلام إمتلاك أقوى أيديولوجيا موجودة على وجه الأرض، فليس هناك رؤية أوسع من احتواء كافة البشرية وكافة الكون؛ فتاريخ المجتمعات يثبت أنه كلما تمتع مجتمع برؤية كونية أوسع استطاع أن يقود المجتمعات محدودة الرؤية، وهذا يفسر كيف تستطيع أيديولوجيا ما أن تهزم أخرى، فالمجتمعات المغلقة هي التي تسقط وتضعف أمام المجتمعات المنفتحة ذات المبادئ الكونية، وهذا ما نشهده بشكل عيني من اختراق الليبرالية الغربية للمجتمعات التي تحكمها الأيديولوجيا الشيوعية المغلقة أو القومية الدينية والعرقية التي هي أضيق في رؤيتها.

وبهكذا قانون: (إله العالمين)، يستطيع الإسلام كأيديولوجيا أن يهزم الأيدولوجيا المادية التي لا تشهد في رؤيتها إلا العالم المادي، والتي بذلك قادت الإنسانية إلى آلام جديدة باسم عبادة المادة وتقديسها، وتحددت قيمة الإنسان فيها بقيمة المادة.

وبالنسبة لمجتمع "شريعتي" الإيراني الشيعي، فهذا القانون يقضي على أيديولوجيا مجتمعه المبنية على رؤية كونية عرقية وطائفية وطبقية، وينقله إلى

أيديولوجيا أوسع رؤيةً، يكون فيها الإسلام كدين مادة منشطة تدفع الإنسان إلى الحركة بدلاً من تخديره وعزله عن الواقع والحياة، وتقضي على الطبقية بكافة أشكالها التي تحكم المجتمع الإيراني وتشل حركته، إلى جانب أن هذه الرؤية تنسف كافة الرؤى التي تطرحها التيارات الإسلامية بإسم الإسلام، وهي تخدم في الحقيقة رؤى قومية أو عرقية أو طائفية.

فالإمام "علي" و"الحسين" لم يعد صراعهما مع السلطة من أجل الحصول على الحكم، والشيعي لم يعد يرتبط بآل البيت من أجل الرواية التاريخية التي توارثها بأنهم يستحقون وراثة النبي باسم الدم النبوي؛ فهذا يؤسس للتضاد وللطبقية العرقية ولأفضلية وتمييز عنصري بين البشر؛ وإنما آل البيت ثاروا من أجل إسلام "إله الناس"، وشيعتهم هم من يتحملون هذه الرسالة بعدهم.

❖ **أي بيت إله؟**

انتهى "شريعتي" إلى أن الإله في عقيدة التوحيد هو (إله الناس)، وبالتالي يجب أن يكون بيته أيضاً هو (بيت الناس)[98]، أي أن بيت الله في الأرض يجب أن يكون في خدمة تحقيق رسالة الإسلام للناس جميعاً؛ وليس في خدمة العمل من أجل طبقة أو طائفة أو عرق أو أمة ما، فهو المكان الذي تخرج منه دعوة التوحيد من أجل صلاح المجتمع البشري كافة، فالرحمة العالمية[99] التي جاء بها النبي **محمد** ﷺ هي تعاليم الإسلام التي تعمل على صالح الناس جميعاً، ومن يعمل على تحقيق نموذجها ويقدمه للبشرية هم "المسلمون"، فلا يمكن أن تعمل هذه التعاليم ضد إنسان وتخدم آخر، كما فعلت الرؤية الصفوية، وكما هو الواقع الراهن للإسلام.

وهنا ينظر "شريعتي" إلى مسألة **الوظيفة** التي تحدد الفارق بين بيت الإله الواحد وبيت الإله الشركي، فالأول: يكون في خدمة الناس، ويكون بيته مركزاً مضاداً للتوجه الطبقي ولكافة أشكال التضاد والصراع داخل المجتمع؛ بينما الثاني: يكون في خدمة ومصلحة طبقة أو عرق أو أمة معينة كما كان دور المعبد في الأديان الوثنية، وهو ما تجلى في الدولة الصفوية حينما أصبح المسجد في خدمة هذه الدولة ضد الدول والأمم الأخرى، وأيضاً حينما أصبح المسجد في خدمة طبقة رجال الدين من أجل تخدير الناس لصالح طبقتهم ولصالح طبقة السلطة التي تشاركها المصلحة من تخديرهم، فعلى طول التاريخ لم تكن المعابد وجه الآلهة؛ بل كانت وجه الحاكم والكهنة وأمة من الناس، وهو ما كان يعمل ضد الناس. وكذلك جاء الإسلام ليكون بيت العبادة لله وحده: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا)[100]، فالناس وحدهم هم من يشاركون الله في بيته.

ولذلك يرى "شريعتي" أن النبي الذي كان يأتي بدعوة التوحيد لطالما كانت تُقابل دعوته بالرفض والصد من جانب رجال الدين التوحيدي السابق أو الأديان الشركية؛ لنفس هذا الأمر، وهو أنه يطالبهم بأن يكون بيت الله في خدمة الناس وليس في خدمة الطبقة الدينية أو طبقة السلطة أو طبقة رجال المال، وكانوا يرفضون هذه الدعوة التي تهدد مصالحهم التي تشكلت على أساس تبيعة الناس لهم،

وارتباط مصالح طبقة السلطة والمال بهم. وهو ما يفسر محاربة "بلعم بن باعوراء" لدعوة "موسى"، ورفض "الفريسيون" لرسالة "عيسى"، ورفض قريش للإسلام لأنه سيحرمهم من السلطة الدينية التي كانوا يتكسبون منها من الأصنام داخل الكعبة[101].

وهذا القانون الذي وضعه "شريعتي" لدور المسجد، يوضح أن الأمر في الإسلام لا يقتصر على الاعتراف بالإله الواحد وافراد العبادة له وحده داخل بيته، وإنما تحقيق هذه الوحدانية لا يستقيم إلا بتحقيق مفهوم (بيت الناس). ولذلك يعتبر "شريعتي" أن السلطة السياسية طوال التاريخ الإسلامي ومنها الدولة الصفوية لطالما كانت تخشى من المسجد، ومن ثم سعت إلى تحويل وظيفته إلى لعب دور البيت الوثني الذي يخدم الملك والكهنة، ويكرس لتبرير الواقع الفاسد والتضاد داخل المجتمع، ففي عهد اهتم الحاكم بالخانقاه[102] وفي آخرِ اهتم بالحسينية، وحول المساجد إلى متاحف[103]، فقد فهم الحاكم الصفوي أن رسالة الإسلام والتشيع تهدد سلطته وأن الحسين يهدد عرشه فقام ببناء معبدٍ له وصنع من الحسين إلهاً يكون نصيراً لشيعته، ما أدى لتخديرهم وضياع رسالة الحسين باسم محبته، وباسم الإله الخاص الذي يعبودنه ويحقق مصالحهم الخاصة.

وهذا القانون أيضاً يحدد أي **خطاب ديني Religious discourse** هو الذي يعبر عن دين إله التوحيد؛ فالخطاب الطبقي الذي يعزز من سلطة رجل الدين أو سلطة الملك، أو أي سلطة تأتي على حساب الناس جميعاً، كتوظيف الخطاب لصالح طائفة أو أمة أو عرق ما، فهو خطاب لدين شركي وليس خطاب دين التوحيد؛ لأنه يقضي على سعة الرؤية الكونية للإسلام، فالرسالة المحمدية لم تأت لإنقاذ مجموعة محددة من البشرية بل جاءت لإنقاذ الناس جميعاً.

خاتمة

ادرك "شريعتي" كعالم اجتماع ديني أن الفكر الإنساني هو مرآة اجتماعية، أي انعكاس للبناء والواقع الاجتماعي، وأن العلاقة بينهما هي علاقة طردية؛ فالمجتمع المتطور والمتقدم في بنيته وتشكيله يُنتج فكراً تقدمياً، والعكس صحيح؛ فالفكر التقدمي والحركي ينتج مجتمعاً موازياً له، أي أن العلاقة متبادلة بين الذهنية والعينية، وهو ما قامت عليه النهضة الأوروبية بتغيير ذهنية تفكيرها لتغيير واقعها العيني.

ولذلك، الاصلاحات الدينية التي طرحها "شريعتي" خلال مشروعه "التشيع العلوي"، كان الغرض منها تغيير الذهنية وطبيعة التفكير من أجل تغيير الواقع الاجتماعي في بلده إيران، الذي وجده يتشابه في تكوينه الاجتماعي مع بنية المجتمع الغربي في العصور الوسطى. ولذلك قام بإعادة فهم الدين وأنسنته على أساس مبدأ أصيل في الإسلام وهو التوحيد. فعمل على إعادة فهم الرسالة والرؤية الكونية للإسلام على أصالة المبادئ، لا على صورتها التراثية والتاريخية، وهو نفس ما قامت عليه الحركة الإصلاحية في أوروبا؛ حيث الأصالة لتعاليم الإنجيل وليس لسلطة الكنيسة والتاريخ الكهنوتي على هذه التعاليم.

فالمعالجة التي قدمها "شريعتي" للرؤية الكونية للإسلام كانت تستهدف الاصلاح الاجتماعي من أجل تحسين زاوية وبؤرة الرؤية الكونية تجاه العالم، وهي المجتمع الإيراني الشيعي الطبقي الذي يشاهد منه إنسانه العالم بشكل ضيق. والهدف من الأصالة التي منحها "شريعتي" للإنسان وللناس داخل الرؤية الكونية التوحيدية في مقابل الأصالة للتراث والطبقة والقوى الفوقية؛ هي الاستفادة من القوانين الاجتماعية للتجربة الأوروبية لتحقيق النهضة الحضارية، وبناء مجتمع يتأسس على رؤية كونية أوسع، مبادئها الوحدة الإنسانية والعدالة والمساواة وسلطة الناس فوق سلطات الآحاد مثل الطبقة الدينية والارستقراطية.

هوامش:-

1 − Abbas Navabi, Reform and revolu tion in Shi’i Islam: The thought of Ali Shariati, Faculty of the Graduate School, Department of Political Science, Indiana University, 1988, pp 13: 15

2 - پوران شريعت رضوي (دكتور) ، طرحي از يك زندگي ، چاپ دوم، انتشارات پژمان، تهران، 1374هش، ص16.

3 - المرجع السابق، ص61.

4 - انظر: سيد علي حسني، مقاله: تأثير اومانيسم بر نهضت اصلاح ديني (پروتستان)، مجله معرفت كلامي، تهران، سال دوم- شماره سوم، پاييز 1390 هش، ص 138.

5 - Ervand Abrahamian, 'Ali Shari'ati: Ideologue of the Iranian Revolution, MERIP Reports, No. 102, Islam and Politics (Jan., 1982), (Middle East Research and Information Project), pp. 24-28.

6 - انظر: امير روشن، علي شريعتي و الينا‌سيون فرهنگي، پژوهش علوم سياسي، تهران، شماره4، بهار وتابستان 1386هش.

7 - انظر: مصطفى كحيل، الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، رسالة دكتوراة، جامعة منتوري- قسنطينة، الجزائر، 2008/2007.

8 - انظر: خالد عودة الله، النقد والثورة، دراسة في النقد الاجتماعي عند علي شريعتي، المؤسسة الوطنية لدراسة الديموقراطية، رام الله-فلسطين، 2007.

9 - أصل هذا المصطلح يعود إلى الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانت" Immanuel Kant (1724-1804م)، حيث استعمل هذا المصطلح مرة واحدة في كتابه "نقد الحكم: Critique of Judgment"، ثم اتضح بشكل أوسع مع الفيلسوف الألماني "وليلهام دلثاي" Wilhelm dilthey (1833-1911)، وذلك في عناوين كتبه ومقالاته. (انظر: فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم والعلوم الاجتماعية ، مجلة إسلامية المعرفة، بيروت، العدد 42 و43).

10 - فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم والعلوم الاجتماعية، مجلة إسلامية المعرفة، بيروت، العدد 42 و43، ص53.

11 - مرتضى مطهري، جهان بيني توحيدي، بنياد علمي وفرهنكي استاد شهيد مرتضى مطهري، تهران، ص7 و8.

12 - د. محمد باباعمي، الوحي، والمعلومة، والرؤية الكونية، مجلة حراء، اسطنبول، آيار 2012، ص10.

13 - سورة إبراهيم، آية 1.

14 - انظر: اصول عقايد، جهان بيني الهي ويژگيهاي جهان بيني توحيدي، مجله: ميان رشته اي، دانشگاه انقلاب، تهران، دي 1360- شماره7.

15 - مرتضى مطهري، جهان بيني توحيدي، ص9.

16 - مرتضى مطهري، جهان بيني توحيدي، ص10 : 15.

17 - انظر: اعظم پرچم، نقش جهان بيني توحيدي در ايجاد اميد، مجله مشكوة، اصفهان-ايران، شماره 111، تابستان 1390 هش.

18 - مرتضى مطهري، جهان بيني توحيدي، ص16.
19 - عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية، مركز الدراسات المعرفية، الرياض، 2008، ص87.
20 - سورة الشورى، آية 11.
21 - المؤمنون115.
22 - سورة البقرة، آية 115/ 156.
23 - مرتضى مطهري، جهان بيني توحيدي، ص7 :21.
24 - انظر: داريوش آشوري، پروژه بازگشت به عصر استبداد مدرن، مجله بازتاب انديشه، تهران، شماره 45-55.
25 - سورة التكوير، آية 27/ 28.
26 - سورة الأنبياء، آية 107.
27 - علي شريعتي، مج 22، مذهب عليه مذهب، پدر مادر، ما متهميم، بنياد فرهنگ دكتر علي شريعتي، انتشارات چاپخش، ص88.
28 - المرجع السابق، ص88 و89.
29 - المرجع السابق، ص89.
30 - شمر بن ذي الجوشن ، كان ممن بايع علي بن أبي طالب وشارك في معركة صفين إلى جانبه لكنه تمرد عليه في فتنة الخوارج وبعد ذلك شارك في قتل الحسين بن علي.
31 - علي شريعتي، مج 22، پدر مادر، ما متهميم، ص 91 و92.
32 - شريعتي و ماركسيسم، مجله حافظ، تهران، شماره 15، خرداد 1384، ص16.
33 - المرجع السابق، ص90.
34 - الوجودية **Existentialism** تيار فلسفي يميل إلى الحرية التامة في التفكير بدون قيود ويؤكد على تفرد الإنسان، وأنه صاحب تفكير وحرية وارادة واختيار ولا يحتاج إلى موجه. يتفق الفلاسفة الوجوديون في مبادئهم على أن الوجود يسبق الماهية، والوجود في المقام الأول هو الوجود الإنساني. ووجود الإنسان الفرد يرتكز على مبدأ حريته في الاختيار والفعل، ومن هذا المنطلق يتحمل الإنسان مسؤولية وجوده، وهذا يؤدي به بالضرورة إلى السعي نحو تشكيل ماهيته، هذه الماهية الخاصة به وحده التي يبنيها باستمرار انطلاقاً من استكشاف إمكاناته الخاصة باختياره الحر للشخصية التي يؤديها بحرية تؤهله لاتخاذ قراراته، فيكون المسؤول الوحيد عن هذه القرارات وهذه الاختيارات. يعتبر سارتر أحد أعلام هذه المدرسة ويمثل الجانب الملحد منها. (انظر: عصام غصن عبود، الوسوعة العربية، مجلد22، الفلسفة وعلم الاجتماع والعقائد، الوجودية، ص148).
35 - علي شريعتي، مج 22، پدر مادر، ما متهميم، ص92.
36 - انظر: داود الهامي، مقايسه جهان بيني ساساني با جهان بيني اسلامي، مجله مكتب اسلام، تهران، تير 1355هش، سال 15، شماره7.
37 - محمد تقي مصباح اليزدي، دروس في العقيدة الإسلامية، ت: عبد المنعم الخاقاني، ط8، دار الرسول الأكرم، بيروت، ص 22 و23.
38 - شريعتي، مج4، بازگشت به خويشتن، ص172.
39 - شريعتي، مج 23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص 84 و85.

40 - انظر: يان ريشار، دكتر علي شريعتي، انقلابي شيعه، ت: حميدي احمدي، كيهان فرهنگي، تهران، شماره33.
41 - شريعتي، مج23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص 90 و91.
42 - انظر: مهدي شريعت، پروتستانتيسم اسلامي و ايدئولوژي در ساختار فكري دكتر شريعتي، مجله: چشم انداز ايران، تهران، دي و بهمن 1388هش.
43 - شريعتي، مج23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص90.
44 - المرجع السابق، ص 123.
45 - المرجع السابق، ص126 : 128.
46 - سورة البقرة، آية 249.
47 - سورة الإسراء، آية 77.
48 - شريعتي، مج4، بازگشت به خويشتن، ص449 و450.
49 - فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم والعلوم الاجتماعية، ص53.
50 - شريعتي، مج 12، تاريخ تمدن (2)، ص 204 و205.
51 - شريعتي، مج 23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص 5 و6.
52 - Henri Bergson هنري برجسون (18 أكتوبر 1859 - 4 يناير 1941)، فيلسوف فرنسي مثالي. حصل على جائزة نوبل للآداب عام1927. حاول أن ينقذ القيم التي اطاحها المذهب المادي. (انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ط3، بيروت، ص162 : 163)
53 - شريعتي، مج 23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص6.
54 - شريعتي، مج 12، تاريخ تمدن (2)، ص 177.
55 - حافظ می‌گويد كه: "جهان و هر چه در آن است هيچ در هيچ است، پس دم را غنيمت شمار"، محمود درگاهی، حافظ در نگاهِ دكتر شريعتی، مقاله، بخش اول، سايت تبيان، تاريخ نشر: دوشنبه 1388/7/20هش/ www.tebyan.net.
56 - مولوي: اگـــــر يک ذره را برگيری از جای فـــــــرو ريزد همه عالم سراپاي.
57 - شريعتي، مج 23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص 8 و9.
58 - انظر: غلام عباس توسلي، دكتر شريعتي آغاز گر انقلاب فرهنگي، مجله كيهان فرهنگي، تهران، شماره 37.
59 - شريعتي، مج 28، روش شناخت اسلام، ص92 : 94 و167 : 169.
60 - انظر: بيژن عبدالكريمي، نقدي بر قرائت پست مدرن از انديشه شريعتي، مجله علمي-پژوهشي دانشكده ادبيات علوم انساني، دانشگاه اصفهان، دوره دوم، شماره 46، پائيز 1385.
61 - انظر: الملل والنحل للشهرستاني، الباب الأول: المسلمون. أيضاً: أصل الشيعة وأصولها لكاشف الغطاء، الباب الأول: التوحيد.
62 - سورة الذاريات، آية 56.
63 - سورة الذاريات، آية 56.
64 - شريعتي، مج19، حسين وارث آدم، ص 340.
65 - شريعتي، مج33، گفتگوهاي تنهايي، ص935.
66 - سورة الفاتحة، آية 7

67 - شريعتي، مج 23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص237 ، 238.
68 - شريعتي، مج 19، حسين وارث آدم، ص341.
69 - سورة البقرة، آية 31.
70 - شريعتي، مج23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص331 - مج 28، روش شناخت اسلام، ص 601.
71 - سورة البقرة، آية 30.
72 - شريعتي، مج 24، انسان، ص85 - مج 28، روش شناخت اسلام، ص 600.
73 - (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ - النور، 55)، (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ - الأنبياء، 105).
74 - شريعتي، مج 30، اسلام شناسي، ص 107 و108.
75 - انظر: سيد مهدي ساداتي، واكنش جريان روشنفكري ايران در برابر ليبراليسم، فصلنامه علمي- پژوهشي مطالعات انقلاب اسلامي، تهران، شماره 17/ تابستان1388هش.
76 - محمد تقي مصباح اليزدي، الإيديولوجية المقارنة، ص70 : 72.
77 - انظر: علي شريعتي، مج 25، انسان بي خود، اومانيسم در غرب و شرق.
78 - فاضل رسول، هكذا تكلم علي شريعتي، ط3- 1987م، دار الكلمة للنشر، بيروت، ص167.
79 - شريعتي، مذهب عليه مذهب، ص 14 و 15.
80 - شريعتي، تاريخ تمدن (1)، ص215.
81 - تكررت الإشارة في آيات القرآن الكريم إلى أسبقية إيمان الضعفاء والمحرومين بالتوحيد عن باقي الناس: (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ – هود 111)، (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ- هود 27).
82 - علي شريعتي، مج 15، تاريخ و شناخت اديان (1)، ص455.
83 - شريعتي، مج23، جهان بيني و ايدئولوژي، ص 32 و33.
84 - شريعتي، مج14، تاريخ وشناخت اديان (1)، ص 452.
85 - شريعتي، مج23، جهان بيني، ص34 و35.
86 - شريعتي، مج30، اسلام شناسي، ص 125: 127.
87 - شريعتي، مج23، جهان بيني و ايدئولوزي، ص 46.
88 - شريعتي، مج14، تاريخ و شناخت اديان (1)، ص 453 : 457.
89 - شريعتي، مج22، پدر مادر، ما متهميم، ص 187.
90 - سورة الناس.
91 - سورة آل عمران، آية 96.
92 - سورة سبأ، آية 28.
93 - سورة البقرة، آية 143.
94 - سورة البقرة، آية 213.
95 - سورة الفاتحة، آية 2.
96 - سورة التغابن، آية 17.

97 - شريعتي، مج22، مذهب عليه مذهب، ص31.
98 - شريعتي، مج 28، روش شناخت اسلام، ص201.
99 - وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (107) قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (109) - الأنبياء.
100 - سورة الجن، آية 18.
101 - شريعتي، مج 22، مذهب عليه مذهب، ص 17 و18.
102 - الخانقاه Khanqah :معرب الكلمة الفارسية: خانگاه، هو المكان الذي ينقطع فيه المتصوف للعبادة.
103 - شريعتي، مج9، تشيع علوي و تشيع صفوي، ص230.